رواية

الكومبارس

تأليف

حيدر علي الاسدي

الإهداء

الى طلبتي في قسم التربية الفنية بكلية الفنون الجميلة

المرحلة الثالثة للعام الدراسي ٢٠١٨ / ٢٠١٩

لانكم سعادة حقيقية...

وزرعتم داخلي جمال من نوع اخر...

اهديكم خيالاتي هذه ...

الفصل الأول:

الأمهات في بلد السواد لا يحملن الأجنة في بطونهن وحسب، بل هناك كائن حي يزور أرحامهن في تسعة أشهر عجاف، هذه الحالة لازمتهن منذ أن هم قابيل بقتل هابيل، ذلك الأسى والهم والغم بهيئة مكفهرة وقيافة خاكية تنبعث منها روائح بارود الحرب التي يشترك فيها بنو البشر من كل حدب وصوب (تباً لتلك الحرب التي تبتلع الرؤوس عنوة بدون أي رادع) في قريته تلاشى الحب شيئاً فشيئاً بعد أن كرمها القائد المبجل بحرف الراء الذي دكه كتمثال في معسكر الجيش الشامخ كشموخ العواهر والمومس في شارع بشار آنذاك، الروتين اليومي لا تكسر حدته بل خيم كشبح وكزائر يومي في بيوتهم البسيطة الملتهبة بالانكسارات أعلى سقوفهم ومشاكسة الطفولة في جدرانها المتهرئة، كعادته لابد أن يمر بنتوءات الطريق المعرجة والتواءات الأرض المتباعدة كنفوس معلمي القرية والمدينة لحظتذاك، يتأبط حقيبته التي لازمته منذ أن كان طالباً جامعياً في كلية الآداب— قسم اللغة العربية، يوم كان يعتمر طي الطريق الجامعي عارياً من ذاته لا يحمل سوى قدماه، ونفس الزي اليومي ربما من حسن حظه كما قال لهم مدرس اللغة الإنكليزية حينما كان طالباً في الإعدادية ذات يوم (إن الفقراء يتداخلون فلا يعرفون في الجامعة بسبب الزي الموحد بإمكانك أن تغسل وتكوي ملابسك وترتديها كل يوم دون أن يشعر الآخرون بذلك) يا للأجواء الروتينية كل يوم يحمل نفس الرأس الذي يتثاقل منه مراراً ونفس الحقيبة الخالية إلا من ورق أبيض كسنين عمره والتي أفرغها من أي معنى كما تقول له والدته، هو يؤمن بمقولة أورثها من جده حينما أوصاه قبل الممات (يا بني اعلم من ليس له ظهر قوي يسنده في هذه الدنيا سيتهاوى عليه سوادها وتكسر شراعه ليرتمي في أحد الشوارع الفارغة أو المقابر المظلمة)

لم يكن (صائب) منذ نعومة أظفاره ليكون تلك الصورة القبيحة عن دنيا لعوب لا تضاجع إلا من تحب ولكن فقر طفولته وقساوة مراهقته وذلة شبابه جعلته رجل شوارع ومقاهي، يجوب الأيام والليالي بدون هدف أو شيء يصبو إليه ولكن كل ما يدور في شرايين دماغه المتقطعة من التفكير (كيف أحصل على المال لأكون محترماً؟) كان يرى أن الاحترام مقترن بالمال (يا لها من ملازمة جاهلية) ترك القرية بعد أن تهادى آخر خيط في شجرة العائلة، أمه التي طالما أشفقت عليه وهو يستقبل أسياط والده الغاضب دوماً منه لأنه بلا عمل،قدماه تسوقاه إلى صخب المدينة بعد أن قررها عقله، هذا ما كان يحلم به لعله يجد وظيفة لائقة هناك سيما أنه يحمل شهادة جامعية، عيونه ودعت البيت الذي صار ملكاً لجاره مقابل مبلغ تافه لايسد أجر عام واحد في المدينة، بدء تحت الشمس وقد برزت أعلى راسه بعض الشعرات البيضاء المشاكسة ربما الشيخوخة انتزعته من الزمان الشائخ كذلك، وهو يهم بالرحيل تتثاقل خطواته للوصول إلى أول حافلة ستغادر المكان يتساءل مع نفسه بصوت خفيف أثار فضول جوقة المراهقين الذين يتسمرون في أطراف القرية بحثاً عن مشاكسة فتيات السوق، (ماذا لو كانت إحدى العينين مكان الأذنين؟!)صفع دمعته المنسابة بعهر مخفي وقطف الحزن حبات سائلة بدلاً من حلمه تاركاً آثار أظلاف على مدينته العصية، مقعد الحافلة الذي هدء من ثقله الجديد وجوه الراكبين مختلفة الألوان (عاهرة، بريئة، منافقة، تلقائية) لا يعرف شيئاً عنها سوى أنه يخشى كل الآدميين ولا يوقر إلا نخلته التي اقتلعها قبل سفره هذا ورماها بجحر الكلب (صديقه الوفي) الذي رماه ببندقية جده ربما أراد أن يقتل كل ذكرياته في القرية تحسباً لحياة جديدة أكثر نعومة في المدينة.

ألقت به السيارة لنهاية مطافها ووقفتها الأخيرة في سوق المدينة الكبير حيث الصخب وعبارات العهر والشتام متطايرة من الباعة يحدق النظر بمكونات عالمه

الجديد (صباغي الأحذية): (يا إلهي هذه صورة أولى تعيده لأيام الجامعة يوم كان يعمل بعد الدوام بهذه المهنة التي جلبت له أشكال مختلفة من الأقدام...) بدء يحفر أنفه بسبابته بحثاً عن بقايا القرية فلم يجد إلا فتات طباشير تفتت كما عمره (جنديان اثنان يتمشان بخفية) ربما يبحثون عن أشياء للضابط المسؤول، نظر لهم باشمئزاز لأن أحدهم كان يعتمر خوذة والآخر لا!! ربما المدينة في حالة حرب غير معلنة، يقولها مع نفسه وهو يحدق لفراعة رأس الثاني ويدرك جيداً أن خوذة الموت لا تسع لرأسين معاً... (أطفال يمتطون الأرجوحات) استوقفه مشهدها فهي تأخذهم خطوة للأمام وتعود بهم خطوة للوراء وبعد ربع ساعة انقضت من المنظر لتلك الصورة بدا أنهم لم يتحركوا قط من مكانهم!!! المحاط بالمياه الآسنة والبرك الموحلة، بالقرب من بائع فاكهة البرتقال، النارنج، بدا له أن الرصيف المحاذي لمكان الباصات سام التوكؤ عليه من قبل جوقة الصعاليك المكتنزة بتأريخ لا بأس به من التسكع هناك، اقترب من بائع مزيل الرائحة الكريهة وقد وقف أمامه طابور كبير من الرجال والنساء وقبل أن يندرج معهم ويسألهم عن سعر القنينة همس مع نفسه (ما عاد فعال بهذا العصر) دون مؤاربة أخذت قدماه تفتش بقايا السوق وهو يدرك أن كل فرد لديه شيطان في جيبه ربما لهذا الأسبوع لم يعتد أن يترك جيباً في ملابسه حتى ذلك الجيب الخلفي في بنطاله لم يسلم من حملته لرفع الجيوب، بيادق الشطرنج تصك أسماعه وهو يحاذي مقهى الحاج (سبتي) أثارته الوجوه الجالسة هناك ففيها وتر يشبه أوتاره هم كالإصطبل تعودوا تكرار يومياتهم، هنا تتقافز الأصوات من أمامه: (مات الدوشيش بيد أستاذ حميد): (قفلت):

(فد جايين عمو سبتي)، أحاله التعب والمنظر إلى كتلة متضجورة ومنتشية في نفس الوقت ..ضجيج الباعة.... غبار المخازن.... روائح المطابع.... همس وهواجس تتطاير وهو يشق طريقه يلمح واجهات المحال.... أشكال طوباوية... دورق فيه بقع

دم تغلي.... بنايات مثخنة برصاص الحرب.... أصوات مكابح تموسق إسفلت الشوارع.... أضواء نيون في وضع نهاري.... لم يسعفه الحظ لمشاهدة ذلك المشهد لنحر الديكة الجماعي.... يزحزح جسده وقد تاهت قدماه وسط الزحمة أضلاع قفاه تصطك.... ثرثرة بائع ترعب الآخرين خطوط وجهه:

– من يبني سقوف البيوت بعد انتهاء الحرب.... من يعيد للفتيات عذريتهن.... متى يتوقف السياسيون عن استمناء النفاق والعهر....

صفعه الزبون بوجهه الكرافيكي:

– يقال أنهم سيوزعون أكفان في البطاقة التموينية بألوان مختلفة تحسباً لأي موت فجائي قد يحصل.

– صه

تثغو الطرق بالمارة.... أثياب زهرية مزركشة بالدانتيل... الزنابق تهذي... والمكتظون فاقدي البصر يتفكهون بأحاديث جانبية:

– لماذا تنتعني بالصايع؟

– لا عليك لقد وصلوا...

– من هم؟

– لا عليك.. المهم إنهم وصلوا... صه

تحشر صوتهما واعتاصت همساتهم وقد افقده المنظر القدرة على الكلام وقتذاك. توارت من خلف مومس:

– أستطيع أن أوقف الحرب بقبلة أو هز ردف!!

معتمري الأركيلة بأجساد تنز بالعرق يترنحون ويتمايلون لم تبق في شفاههم غير كلمات متفحمة وقد طمرت وجوههم... يناكد المارة يثقب بذاكرته فراغات..

لروزخون وعراب.... فيطلق إبتسامة معادة وليست أصلية يسلي بها الآخرين.... العجلات تدور وتحدث فرقعة، بدد رؤيته رجل يمضغ جلمود بشفتيه جوزية اللون... وهو حزين أيما حزن بجسد صدأ.. انبرى له روزخون مار:

– ما... م.... ا... ب..... ك... ما... ب... ك...

– أنا ...ا ن...ا ... أنا....

همجي

سافل

قذر

وقح

كلب سائب

حقير

تافه

وعتل زنيم

أنا صلبوخولوجي هذا العصر....!!!!

وثمة ثغرة ضعيفة داخل عقلي... إنها فتحة للتنفيس من بارود الحرب

– الحرب ثانية... أنا لا أرى معالم لها؟

– أكيد لأنها في عقلي فقط....!!!

بؤر تسقط فيها سويعات مراهقة.. ثقوب طابوق للجرذان... والـ..... ، النصل يبحث عن الجرذان الكبيرة، النهم يصل لحد ارتمائه او إغفائه طويلة في وجل لزج، استرق نظرة خاطفة ثمة من يضمر ضغينة للآخر بقبعته المدورة ونظارته الطبية ويكفيه منه قصيدة رعناء أصابها خطب ما...!!!

– قلها وإلا.....!!

– تتصادف الأيدي بنرجس الخيال...

ترقص العقول وتحترق المواقد قرب ثوبي...

ثيابي فضفاضة تكفي وقود عام...

والحرب يكفي وقوده أعوام من ثيابي....

ملل البؤس أجساد بالية...

فاقتفى أثر آخر لنا...

نموت بكرامة فيه....

– من أي بحر هذه؟

– إنها من وزن بحر ميت! ! !

– قصيدتك عاهرة مثلك... هل تعرف كم يساوي حاصل جمع (١+١)

– بالطبع إنه (٢)

– يا لك من روتيني...هذا عند الآخرين... فهل تروم أن تكون منهم... النتيجة المنطقية هي (١) ونصف... والنص الآخر يذهب مع ريح المعاملة يا غبي....! ! ! !

يتبول ويبصق على فروة رأسه ويمنحه منظر جز رقاب الديكة، السكان يتخذون الانزواء... ذاكرته متقدة بنفس ذائقة رخام القطار... وثمة زعيم بنصف جسد يلقي خطابه عارياً... المدينة بأسرها تبتهج... وثمة دكات إسمنتية لجلوسهم لسماع الخطاب... ينكمش الزعيم كنعامة تدس رأسها في النهر..... رجل معقور يهرول يروم الوصول إلى ضفة مجهولة عبر بوابة صدئة.... البدين بجسده المكتنز كان يطل وقد اعتمر قطعة قماش وراح يرتشف الماء من علبة زيت صدئة كتب عليها (كيلو باترا) مسخمة بأيامه... أجهز على علبة سكائر أجنبية الصنع.... وبان على وجهه أنه متمحل.... تسير عيونه وتدور بمخيلته غسقية تحرق بض أيامه تقترب قدماه

من ذلك البدين وقد مرقت قرب أنظاره فتاة تجهض بشظايا من رحمها... محمولة على أكتاف حمالي البضائع...

– ماذا تقرأ؟

– هذا الخبر قرأته قبل عشر سنوات وها هو نفسه احتمل أنه وقع نسخ أو اشتباه في نشر الخبر.... إنه نصه تماماً؟

– وما هو؟

– (سيجري تحسين على الخدمات... الكهرباء والأمن والماء والمجاري وسيقضى على الفساد والبطالة.....!!!)

– صه

– طز بالوزارة وبقائدك....!!!

غمرته نظرات بائع شجر البلوط

– تباً هل تباع الأشجار؟!!!

هاجس نفسه وهو يترك البدين يحملق بالخبر بفجاجة....

وثمة صرير مزعج من ساعة بائع شجر البلوط وقد توسط محله يفرك قطعتي نرد ويدخن الأركيلة.... يغض طرفه عن الزبائن ويعزف عن ابتياعهم أي شيء... يحسبه فرك النرد بكفين ضئيلة المرأى.... ضوء الشموع يحرق المدينة... يدخل لكل مكان.... البيوت..... المستشفيات.... المدارس..... الفنادق..... المطاعم..... وحانة رمي أعقاب السكائر بحلتها الجديدة.... بقربها تباع كتل لحم بشرية.... ولكنها نادرة العلامة..... إنهم يبيعونها بثمن بخس....

– هل تريد لحم شعري أو فكري... أو سياسي.... أو أهلي... أو شعبي.... لدينا لحم السياب... الجواهري.... علي الوردي.... المتنبئ..... وستصلنا لحوم سياسية عفنة وهي بسعر رخيص لأنها منتهية الصلاحية....

– أطلق ضحكة شبقية (تباً هل سيتحول لحمي إلى عفن بعد زمن يباع على الأرصفة؟.... قالها وهو يجر أذياله ويلملم بؤبؤ عينيه من المنظر.... فاض كالوحش الأشم وهو يمسك بيد أحد بائعي (أكياس النايلون السوداء الصغيرة) من الأطفال المشردين في الشوارع....

- بني..... دلني على فندق قريب ورخيص ؟

أجابه الطفل بفم متعثر:

– وكم تعطيني.....؟

على عجالة سحبه قائلاً له:

– سأعطيك ما تشاء...

سار مع الطفل وهو يمتطي نشوته بينما يمر بسوق الزهور استوقفته زهرة الغارديني

بصورة تشكيلية لرسام عالمي انزرع تغيير على شفاهه وهو يخاطب تلك اللوحة:

(هناك من يعتقد أن الزهور مكانها الحدائق متناسياً أن ألف زهرة ترقد بالقبور لم تمسها ذراع حبيب...) قاده طفل (أكياس النايلون السوداء) إلى مكان شبه مهجور فيه بعض البيوت المتشابهة ... الصمت يخيم ربما لأن الوقت لحظتذاك هو المغرب.... طرق الطفل أحد الأبواب.... وكلم صاحب الدار برموز لم يفهم منها صائب شيئاً إلا أنه رأى صاحب الدار يمنح الطفل البقشيش.... أدخله صاحب الدار وأشار له بأن يرتاح اليوم في ساحة الدار حتى يخرج أحد النزلاء الذي ينام ليلته الأخيرة وخاطبه (اخلع نعليك إنك في باحة عذراء....!!!) لغرابة الأجواء ولحاجته الماسة إلى الراحة وافق على الاتفاق ما زال النوم مجاناً وليس في متناول الكلاب السائبة السلوقية... التي قضت على مضجعه ليلاً من عوائها... ربما هذا الحال أفضل من ليال الشوارع والنوم في هياكل السيارات

المتروكة في أيام الجامعة.....أصوات الديكة بدأت تتعالى بعد أن سحب الليل خيوطه لتحل بدلها بيضاء الفجر.... الصمت يختلف عن صخب السوق هناك..... بينما يهامس صنبور الماء ليغسل وجهه ربتت على كتفه يداً ناعمة:

– هل أنت جديد في الدار...؟

أكمل عملية غسل وجهه بعد أن تأكد أن أنفه العريض فارغ من غبار ليلتئمس... دار وجهه وإذا بها فتاة شابة تمسك منديل كبير وتناوله له قائلة:

- نعتذر عن نومك بساحة الدار ولكن اليوم بإمكانك الراحة بغرفتك الخاصة...

وسبقت إصبعها الناعمة لسانها لتشير له على غرفته....

اتضح بعد حوار قصير معها إنها صاحبة الدار، وراح ظاناً أنّ من يسكن بقية الغرف الخمسة أولاد الشوارع والكادحين الفقراء من أمثاله.... مضى يومان في الدار وهو يلحظ دخول رجال ببدلات محترمة والخروج عندما يقارب الفجر الشيطاني.... وما أثاره سؤال أحد الجالسين في مقهى الحاج عن مكان سكنه؟ فأجابه صائب:

– في بيت ست آمال....

مما جعل ذلك الرجل يشرق بارتشاف قدح الشاي البلوري....!!!

ربما هاتان الصورتان علقتا بذهنه وعرفتاه بأنه يسكن في بيت هوى ومومس..... خاصة بعد سماعه حوار عبر الجدار المثقب... والمتهرئ... بين مومس وعاهرة..... تقول لها:

– لا أعرف من يضحك على من؟ هم أم نحن؟... ولكن المهم نأخذ ما نريد ويأخذون ما يريدون ونحن الاثنان خاسرون! عدم معرفته بخفايا المدينة وأسرارها جعلته يمكث لأيام هناك في زوايا غرفته تلك وهو للحظتذاك لم يدرك تماماً ما العمل الذي أقدم عليه ومن أجله.... يتسلل الليل خفية وينثر الظلام

أظلاله على جدران غرفته تحيله وحدته إلى مضاجعة الدمى خفية من أمرها.. أو يترك ثقوب في سريره الذي سام جسده المتسخ من الألم والحزن....

بذل ليلته العاشرة جالساً في مساحة الدار الفارغة.... توسطتها أريكة ملفوفة بقماش زهري.... جالسته فيها أحدى بنات الهوى لكي يتحدثا... ربما الجلسة حصلت بتلقائية لكن الحوار كان شيقاً بالنسبة له..... بدء يصفعها بالكلام ويوجهه لها بنهم....

– ما الذي جر قدمي فتاة بعمرك للكون هنا وممارسة ما تمارسينه....؟

رغم أنها كانت مقتنعة تماماً بأن ما تفعله هو عين الخطأ والجرم الشنيع بحق جسدها إلا أنها كانت تقول له إنه لا خيار في دنيا كأنها غاب تبحث عن الجمال لتسكب غرائزها وحاجاتها بوحشية وبدون رحمة ....!!!

عدل من طريقة جلوسه وراح يستمع لبقية كلامها ....قائلة له:

- أتعرف أستاذ ...

فأجابها بتعجب:

– أستاذ !!!!

– أتعرف عندما رأيتك تقرأ كتاب قبل يومين.. فرحت جداً ...

– ولم ؟

– أنا كنت أحب الكتاب فقد كنت عاملة نظافة في إحدى الجامعات وكنت يومياً أبقى لآخر الليل لاحتمل مضايقات الحراس لمجرد سرقة كتب من خزانات الطلبة... وأعيدها صباحاً والمضحك أن الجميع كشفوا أمر سرقاتي فكانوا يظنون أنني أبيعها أو أقايض بها حاجات أخرى ...!!ولم يدركوا أنني كنت أدرس بها لأنني طالبة في جامعة أخرى ... وقد سجنت بمحض إرادتي بعد أن حصلت على شهادة جامعية .... وبسبب وقاحة زوج والدتي .... ولكن مراهقة رب عملي

وصبيانية أمي جعلت الأيام كالسكاكين تجزء جسدي للهوى ورجالات العهر التافهون الذين يبذخون المال الكثير على (.....) بدلاً من منحه لعائلاتهم ....

تطأطأ رأسها وتهمس مع نفسها:

– (يا إلهي لماذا هم أغنياء دائماً ونحن فقراء ....!!)

دملج معصمها كان يستقبل دموعها وهي تشعر بوقاحة أفعالها... فالأجنة باتت تتكسر في بطون الوطن ... إلى أجزاء متشظية لتركب معاً في قطار الخطيئة لحتف مجهول.... الذي يغسل الدماء على إزميل الهوجاء ...

صادفه الحظ أن يستمع لبنت هوى ثانية... كانت غير منشغلة بعمل في ظل غياب واضح للزبون في تلك اللحظات التي جالسته بها ... اختصرت كثيراً حينما جرها للكلام ..... ولم تحب الكلام عن نفسها وحالتها بإسهاب كالأخرى ....

– عندما أراد أن يخطبني أحد الشباب

سأل أبي عني :

– هل هي بكامل أنوثتها كما أنا بكامل رجولتي ....

فأجابه والدي بشجاعة باسلة :

– أي أنوثة.... نعتذر إنها فتاة حرب ...!!!

ربما أراد والدي أن يأد الماء في المهد فأنا لم أعرف مخدع المراة يوماً بل مخادع الجبهة هي من يضيفني ودار استراحتي للبحث عن كسار الخبز اليابس الملفوظ من أكف الموتى .... لإطعام الصبية ... الذين بدأوا ينقطعون عن الكلام والحياة.... من شدة الظمأ ..تركته بعد أن نادتها صاحبة المنزل أن هناك زبوناً في انتظارها.... ليعود هو لممارسة لعبته مع الدمى في وحدته نحو المجهول .... وجو المدينة

الصاخب والبيت الهادئ ...الهادئ جداً... بدء يرقد في إغفاءة طويلة أوقفت الحركة وشلت النبض ....

الفصل الثاني

-١-

غزارة المطر تربت بقساوة على سقوف الدور.... التواءات الأجساد تتماهى مع المواقد داخل الذوات..... النتوءات الشمسية والليلية ترتسم على فتحات أسنان ضاحكات والجسد الفائر غولا بلا سبات يتكهن بصداع الرأس وهرطقاته..... ليتهرأ شيئاً فشيئاً مع الأجساد القرمزية الأخرى... ربع جسد مشلول والربع الآخر قطعة مرمية على قارعة الطريق يحملها أسنصير سائر عمودياً وافقياً.... جزء منه ينبض على أوساخ شراشف المستشفيات التي ترتكن بالقرب من مكب الأجساد بجانب الطب العدلي... قيامة الفساق العاهرين:

- طز بتلك الطبيبة التي سرقت خاتم خطوبة جثة هامدة لم يبق منها إلا أجزاء بسيطة لا تكفي لسد رمق الأموات.... صوت قادم من مجهول...

ربما لأننا في عصر يوجد فيه أكلوا اللحوم.... بجانب الطب العدلي راح يبصر السيل الملون من الجثث الوافدة بوقار وبرضا محملة على أكياس خشبية غادرها الهواء وعدمت المشكاة.. النخيل المحاط بالطب العدلي مملوء بالتمر.... يرجع الكرة ثانية يبصر الجثث وحبات التمر... القرى تعج بهورنات سيارات الحمل الكبيرة.... يرتضع كالطفل همه بتنهيده، أوشك أن يقترب من إدراك إنه جاء للبحث عن شيء ما بدلاً من التسكع هنا.... حنجرته تستقبل الهواء بدون ورقة ترشيح لترشح غبار القرية منه ولئلا يسحقه الماء الأجوف الآسن بروائحه يعود بدماغه المتشعب إلى بيت البنات كما يحلو له أن يسميه... تتماوج ذكراه المثقوبة تتدفق كالظلام المنهمر على الغارقين في اللذة...ثمة سيناريو لمسرحية

مفتوحة النص.... كتبت برصاصة طائشة.... على وقع أهداب جغرافية الخشبة بسينوغرافياها المعتمة... بياض... سواد... بياض... سواد.. ينبض.. يتحرك... ينفجر ....

أفواه تتقافز... ترتجف... تهرول.... تائقة لـ.....

يقبلون المواخير ثم يركلونها..... تصدر أصوات من أفواه معتمة.... مفعمة برائحة بارود... تخلى سبيل الكلمات من الأفواه:

- رب صدفة خير من ألف ميعاد.....!!!
- ميعاد.... لا تشتم ميعاد والدتي.... فليس صدفة بأجمل منها ولا أحن منها.....!!

يطلق قهقهة جنونية:

– يا لكم من مساكين... لم تدرسوا القراءة جيداً... ربما أنكم لم ترتادوا مدارس لتعليم الكتابة والقراءة... بل مدارس لتعليم رمي العدو بالرصاص وحسب...!!!.

أبصر الظل صديقه وقد سام طول وقوفه... رمى السماء بنظرة قاسية (علام هذا) تناوش قدح شاي من تلك العجوز التي اعتادت الجلوس في باب الطب العدلي لتبيع الشاي الحار على ذوي الأموات.... الذين تصدعت رؤوسهم بالبحث عن جثة ابنهم (يا له من بلد لا يكرم فيه الأموات...!)

لظاه يغمر ظله المنتشي بصرخات النسوة (يبووووووووووي)

ربما هذا غير مألوف باعتبار ظله عصبي المزاج.... تنزلق من أمامه صورة تجعله يتصبب عرقاً ويتثاقل كالمنطاد المخلوق من الرماد....مراهقة التصقت بجدران الطب العدلي...لم يبق عليها شيء من الثياب بعد أن مزقتها على زوجها المقتول بآلة حديدية جارحة أفادت التحقيقات إنها مصنعة في أحد دول الجوار!!!!

وربما يرى القاتلون أن زوجته المراهقة وشت به حينما مزقت ثوبها الرخيص جداً أمام أعين الشياطين، لم يزل يستغرب وينبهر ويبتسم وتتطافر منه الدموع لحظات ربما أرهقه منظر الطب العدلي لم يكن بمقدوره أن يستجمع قواه ليغمس رغيف الخبز اليابس بدم الأموات ليرسم على لسانه شهقات احتظار لقلب ابن القرية وبعيش ابن المدينة وبطنه تفخر بأجود أنواع اللحوم!!!ربما لأنه يؤمن إنه ليس أكل اللحوم البشرية الميتة حرام بل أكلوا اللحوم الحية عن بعد كذلك. يعود لبيته في طريق السوق يجبر قدماه على وطأته حيث التعرجات تملئ الإسفلت الذي سام السكون هكذا وسام استقبال بصاق التافهون أمثال ست آمال وصديقاتها

في المدينة لا يكترثون للنوايا إنهم يعشقون الجسد المملوء والمكيج.

على السوق الممتد في قارعة طريقه الذي مله واشتاق لاعتماره بذات الوقت

ثمة من اشتراهم السوق يبيعونه بخساً كما باع أخوة يوسف يوسفهم بدراهم معدودات...الشمس تحصب بؤبؤ عينيه يكاد لا يرى الطائرات من الحمائم وهديلها الطائرات تبتعد قليلاً كما الأخلاق غادرت من بيت البنات!!! ومن رواده.دقائق واختلط الرصاص بذروق العصافير ربما يريدون قتل ذوات الأحياء من رواد قهوة الحاج سبتي. لتسير الناس كما عملوا البعض منهم بحياة لا تعدوا كونها طولها شبر فوق السرة وتحتها. وما عداها يجب أن يدفن مع الجثث في قبور المدينة المتلاصقة مع البيوت!!! هذا ما أرادوه دوماً لأنه يشعرهم بالتوحد والأنسة!!!صورة ميت لم يؤذن بدفنه بعد لازال يسير ويساير الأناس منذ حصوله على مكرمة قائده الكارتوني. يعيش في الركام على بقايا ذكريات متقعرة أصاب جزء كبير منها مفاصل حيوية في حياته فقدم طفليه كبش فداء نحرا واتبعهم بزوجة ثم أم وأب فأخت وكل من تبقى من العائلة.ربما هذا ما يفعله من كان ينوي العيش على ريش القش فهم قشروا الزمان ومكيجوه اللعوب. لتحل بدل الأجنة كراسي وحيدة عازب فاتها

القطار تغوي المجانين والمنغوليين لمواقعتها. ربما أرادوا تكثير سوادهم بهذا. الشرشف الفضفاض يضم تكاسير ليحضن تقاطر مياه وجهه قطرات مصحوبة بذرات غبار ضرير تنقصه العروة ليقاد لقلوب الآخرين.يطلق ابتسامة فارهة انفجرت معها وحدة وجهه المقوسة دوماً بإطار واحد منذ الليلة الأولى في بيت البنات.

....

صيرت صورة القدوم والرحيل متعلقة كثيراً، وبمعزل في أحد زوايا دماغه المتشعب حتى عندما كان القادم هو رجل بفمين وأذن واحدة !!!ومنقوع من المطر المتعفن الذي بات قبل أن يغسل أجسادهم من لمسات العواهر.الزناة يتفاعلون كيميائياً وفيزيائياً مع العواهر. يبحث عن ترياق ليستأصل (الكابوس، الواقع، الحلم) ينادي بهمس ست آمال التي انشغلت بغسل فاكهة البرتقال والرمان والتفاح.

– عفواً هل تناوليني قرص البراستيول؟

رمقته بنظرة عطوفة واتجهت إلى صندوقها الطبي لتناوله طبقة كاملة بدون أن تنطق ببنت شفه. غادرت المكان بينما الصداع أقعده على سريره عنوة وطلب من أحد بنات الهوى اللواتي يهمن بالخروج للتسوق صباحاً بأن تجلب له القهوة.

رمته إحداهن بضحكة مملؤة غنج قائلة له بهزء:

– القهوة العربية في القرن الواحد والعشرين أصبحت تقدم بالسم!!!

فهل تريد أن تفارق بفنجان قهوة؟

ينظر لساعة الدار مرفوعة العقارب ربما لأن الوقت لا يعني شيئاً للعواهر

استبقت قدماً تلك الفتاة الباب مغادرة وقد مسحت كل الماكياج من مساحة وجهها لأنها لا تستخدمه إلا لكسبها وقوت يومها.خرجت منكفئة بيوم لا يخلو من شكليات اليوم السابق. الفجر بدء ينسحب رويداً والقمر لازال متعلق بسقف السماء

مع بعض النجوم التي كأنها عقد منفرطة تعانقه على استحياء فاجئته أصوات الباب تنطرق بهدوء وهو لازال يتثاءب ويبحث عن ساعة يده لتدله على الوقت.

استمر طرق الباب ليخرج وهو لازال غير واعي ليومه الجديد أطلقت الست آمال بوجهه زفرة طويلة وصاحبتها:

– صباح الخير.

رد عليها بنفس ما بادرت وأتبعتها سريعاً:

– عندما تغسل وجهك تعال لغرفة الاستقبال فلدي موضوع معك!!

لاول وهلة كان متضايقاً كثيراً من محاولة تقربات الست آمال المتلاحقة والبريئة!

ولكن هذه المرة حسب بأن شيء ما سيحصل وبدأ كأنه طفل يود أن يتقافز كصبية يلهون في رياض الأطفال أو أحد مدن الألعاب المنتشرة في المدينة

أسرع لغسل وجهه على عجالة ولحق بها لغرفة الاستقبال

بادرته قبل أن يجلس:

- أنت تبحث عن عمل، صح؟

أجابها بعجالة غريبة:

- نعم صح..

ابتسمت لتكشف عن بياض أسنانها وتجيبه بصوت مرتفع بعض الشيء

– إذن ستعمل. يوم أمس كلمت رجلاً مسؤولاً يرتاد على بيتنا وأخبرته بأنك تحمل شهادة الآداب فقال ليأتي يعطي دروساً في مدرستنا الابتدائية

ونحن لن نقصر معه.

فرح بالفكرة وانزعج كون صاحبها تربوي من رواد بيوت المرح والمزاج...

(أي جيل سيخرج من تحت يدي هذا الرجل وظهرانية هذه المدرسة ؟!)

ولكن حاجته للعمل جعلته يتناسى كل هذا سريعاً ويوافق.

سيباشر بعد يومين إلى حين يرد الجواب لذلك المسؤول بدرجة مدير!!!

الشمس تنسحب بهدوء تاركة نسمات الهواء تلفح وجه (المعلم)

وهو يتجول في السوق بطريقه لمقهى الحاج سبتي

تصفعه عبارات الجريدة المتطايرة وقد طابت له مقاماً الوقوف تحت ضريحها كتلاوة القداس لعناوينها المنتقاة من واقعهم البليد.

(كلب يسرق خمس أخوات)(أم تقتل بناتها الخمس) (أب يغتصب بناته الخمس) (زوج يطلق زوجته الخامسة) (طفل بعمر خمس سنوات ينتحر بإطلاق خمسة عيارات نارية على رأسه) وعنوان أكثر تعمقاً وعناية (مسؤول رفيع المستوى يفتتح مدينة للألعاب ويزورها مع عائلته!!) يحدق بأطر الصور ولا يشغله أصحابها العراة. عراة من الملابس والقيم!.وهو يعرف تماماً حينما يضطر للكلام فإنه سيضطر كذلك للكذب. عند محل بائع اللعب هناك دمية بفستان عروسة تدور على نفسها بغرور وقد لطخ زيها ببقع دم منفلتة من قاتل مجهول، لم يدرك جيداً ما سيواجه في تلك المدرسة ولم يقرأ جيداً بعد الحياة في المدارس فاجئته يافطة المدرسة المدونة في قصاصة العنوان (أعواد المشانق للحياة سلم) ولم يعرف إلا للتو حينما جلس في الإدارة والتقى المدير، إنه سيدرس مادة الفنية وكذا وافق كما وافق على الأمر بصورة عامة مسبقاً لم يهمه ماذا سيدرس أو كيف المهم أن يجني الأموال، وربما لكي يغادر بيت البنات رغم إنه لم يستأ لهذا الحد منهن. طلب مدرس الرسم في يومه الأول من التلاميذ رسم صورة بشعة للموت وراح التلاميذ يمارسون تدوين خطوط عن الفكرة بشغف طفولي مشاكس كونه موضوع سلس التداول، وراح هو يحدق بوجوههم وأثاره منظر ذلك الطفل بمخاطة الأصفر المندلق من أنفه والآخر لعابه اللزج يلفظه حلقه بكثافة. وبعد نهاية اليوم الأول سلموه رسوماتهم ليطلع عليها قدماه اتجهت صوب الباب العام ليهم بالمغادرة بعد أن استأذن المدير بذلك.

الشارع المحاذي للمدرسة تكنسه الأتربة قلبه وعقله يتصارعان حول بيع ذاته بسعر لا يساوي دخول المرافق الصحية عشر مرات! !ولكن لعنة الله على الحاجة التي تجعل الإنسان ذليلاً قالها (طز بذاتي وليحصل ما يحصل)، وحمل بعض الأوراق المرافقة لرسومات الطلبة ليركب الباص عائداً إلى بيت البنات. وبعد يوم شاق خلد للراحة على إحدى وسادتيه معانقاً الأخرى ولم يفق إلا بعد زوال الشمس تماماً يومذاك، وبعد أن تناول شيئاً من الطعام أعدته له الست آمال بدأ وقت مطالعة رسومات الأطفال التلاميذ.بدا له الموضوع شيق لأنه يمارس ذاته منذ أعوام وربما انتابه شعور لأول مرة بأنه إنسان على سبيل المثال والتنويه. بدأ يقلب الصور واحدة فأخرى وأخرى اختلفت تفسيرات التلاميذ للموت أحدهم رسم وردة ملطخة بالدم وآخر رسم صورة للزمن وآخر صورة والدته وآخر كتب اسمه وآخر رسم صورة فارغة كتب فيها : (أنت) طال التحديق بتفسيرات الأطفال. عرف أنهم عرفوا للموت معاني عدة ربما لم يحضرهم مشهد التابوت والكفن واللحد ولكن للموت عند الأطفال معانٍ عدة، أكثر قيمة وفخراً له من أي موت آخر قد شاهده في الطب العدلي.استمر في المدرسة لمدة أسبوع كامل قبل أن تخبره الست آمال بأن المدير يعبر عن أسفه بعدم موافقة التربية على عمله في المدرسة وإن المدير قرر إعطاءه مكافأة على الأسبوع وحل خدماته، لم يحزن كثيراً تعود أن يرى أقسى من ذلك في بقية حياته الهامشية، رتب ملابسه القديمة وبعض أشيائه القليلة وسلم المفتاح إلى الست آمال مخبراً إياها أنه يجب أن يغادر يوم غد إلى مكان آخر.هذا القرار الفجائي أثار الست آمال مما جعلها تطلق سيلاً من عبارات الرجاء والتوسل له بالبقاء فترة أخرى معهم في الدار. كل توسلاتها لم تفلح معه ولم تجد نفعاَ ولكن كان سلواها ليلتئذ أنه قال لها:

– أرجوك الليلة دعيني أفكر وحسب، لأن عليّ أن أعيد ترتيب أمور، سأمت من المقهى والجلوس معك ومشاهدة كل هذا.

بان عليه أنه تخلى قليلاً عن تفاهته وهامشيته وموضوعيته التي كان يتمتع بها وبدأ كأنه يشعر أن الحياة تقارعه وهو يبتعد عنها كثيراً ويولي فراراً من واقعها البالي والزائف..

– ٢ –

كثر هم الذين ضربهم الزمن بيد من فولاذ فأقعد أقدامهم سفلى، ما أقسى أن ينتظر المرء قوتاً مؤجلاً عند عتبة الباب.. ينتظره في غصة طعام، أو زائر مجهول... ما أقسى أن تكون رقماً يعد من غير اكتراث بما يشاء... ما أقسى أن تكون جسداً داباً بلا حياة ولا روح وكم قاسٍ أن تتكلم فلا يسمع الآخرون صوتك... فهل مع كل هذا أن تقول عن نفسك ما إنك إلا كومبارس مأجور لشيء مجهول.. أو عربة تحاكم في حضرة الجحيم... زمن تحترق لحظاته كشهاب مارق.

ألم ينز أجسادهم وروائح بارود تفتض حاسة الشم لدى الشابات. أناس جامدة كفوفهم.وآخرون يتضاغون من السغوب. يرشقهم بنظرات ويحدج بأخرى خاسرة وقد سرقت قواه علناً وهو يقرض أظفاره بأسنانه المصفرة.

كان يود لو أن طيراً تهوي به إلى مكان سحيق غير هذا الذي ألفه. ألوان شتى من الناس بعضهم يقتلون أوقات فراغهم بالحديث عن أحجام نهود صديقاتهم وعيشهم كداً!!!حتى ذلك المقولب بشكل مراهق لا يفتأ يحدث الناس عن نفسه وقد ذوى عنفوان مراهقته بالتلصص على الفتيات.. يرمه صائب بحقارة بائنة المعالم (حتى الحبيب نموت فيه بدلا من العيش من أجله)!

كان يدرك تماماً إن في كل العالم ثمة مكان جيد وآخر رديء.

ودائما ما يود المرء الكون في الأول، احتوشته نظراتهم وقد تجندل بعجوز متسولة وقد بان شعر جثل يدل على دواخلها المشؤومة...الشمس كلما أرادت المغادرة تضحك على شفاههم المتشققة من كذب ونفاق.في المكان المعتوه جانبان أولهم يسكنه العسكريون والحيوانات والثاني ماخور للعواهر بانت على محياه جنبات الدروب وقد ذوت روحه وهو يساير الموتى المرقعين بثياب الأكفان

وقد راعه منظرهم. وجاشت غصة ألم في مخيلته وقد ثوى أمام شخصاً معتوه يحدث جلبة وقد بانت عليه الخلال للجنون، وطفق وجيب، فالمعتوه قيل إنه أديب... يتعرى أمام مرآته ويقبح نفسه ساباً ولاعناً... كان تحته ماء متهور يكشف عن تفاصيل جسده باجتياحات صبيانية... عيناه الضبابيتان مشدوهة... يبدو عليه إنه أصحر القلب، وقف أمامه (صائب) والآخرون يحاولون أن يساسون بعض، في الجانب ثمة من يعزف على أوتار العود بسكين حادة فيقطع أوداجها ويسكت نغماتها... يطلق كلمات مندية تارة وأخرى تدل على ما قالوا عنه الناس بانه أديب سابق... يقرأ بصوت متزن مصحوب بهستريا :

– (لا أريد ان يدفع ثمن للقبل

ولا أن يباع الدم

ولا أن يشترى النسيم

ولا أن يستأجر النفس

ولا أريد أن يحرق القمح

ولا أن يشح الخبز

ولا أريد أن يكون ثمة برد في البيوت

وخوف في الشوارع

وغضب في العيون

ولا أريد أن تودع الأكاذيب في الشفاه

ولا أن تودع الملايين في التوابيت

ولا أن يودع في السجن الطيبون

ولا أريد أن يكد الفلاح من غير مياه

ولا أن يقلع البحار من غير بوصلة

ولا أن تفتقر المعامل إلى السوسن

ولا أن يحرم العمال في المناجم من رؤيا الفجر

ولا أن يقطب المعلم جبينه في المدرسة

ولا أريد أن تحرم الأمهات من العطور

ولا أن يحرم الشبان من الحب

ولا أن يحرم الآباء من التبغ

ولا أريد أن توزع الأرض إلى كتل

ولا أن يقسم البحر إلى مناطق نفوذ

ولا أن ترف في الفضاء الرايات

ولا أن توضع في البدل الشارات

ولا أريد أن يمر ابني في العرض العسكري

ولا ابن أية أم

بالبندقية والموت على المنكب

ولا أن تطلق البنادق أبداً

ولا أن تصنع البنادق بعد

ولا أريد أن يأمرني فلان وعلتان

ولا أن يراقبني جاري المقابل

ولا يختموني ويدمغوني

لا أريد أن أحب سراً

ولا أن أبكي سراً

ولا أريد أن يلجموا فمي

كلما قلت لا أريد)([1])

الفكر المهيع والممرع له جعل صائباً يتمسك بمقاربته بينما ازوروا الآخرون وقد سيموه الأذى وأوهاه شدة أقوالهم بحقه رغم هذا لم يخل من الخب، ربما كان يود أن يكون الماضي لديه نسياً منسياً.بمزاج مقرور قال لصائب بفم فعم:

– لو علم الآخرون ما في قلوب العشاق لأحرقوهم.

ثم طفق يسال صائباً:

– هل تعلم كم تساوي نتيجة جمع (١+١) ولا تقل لي اثنين لأنني سأعتبره غباء منك؟!ذهل صائب وهو يعلم أن يكون إنساناً مجنوناً بهذا البلد فهي نتيجة منطقية لإرهاصات شتى تبلد العقول. أخذ يصرخ فيتناثر رذاذ ثلجي من بين شفتيه.وقد دلف (صائب) مذعوراً وعلم أن عقوبته حاصلة لا مراء فيها...مسك المجنون بتلابيبه وضرب وجهه حد الاحمرار (يا للغرابة إنسان يعاقب نفسه من أجل لا شيء) قالها صائب مع نفسه وهو يتسمر لما فعل المجنون بنفسه وبدء يسرد طريقة الحل لصائب:

– افهم وتعلم يا صاح.

إن كانا حبيبين متفانيين في الآخر فهم (١) وإن كانا يبغضان بعض فهم عدم (صفر) وإن كان أحدهم يحب والآخر يكره فهم (١) .

وبدأ يصرخ :

---

[1] قصيدة للشاعرة الاسبانية (ANGELA FIGUERA)

(الحرب الحرب.. قاتلها الله ومسبيها).

كل البلدان تستورد السلع الجميلة وتزرع العطور إلا نحن فنستورد الموت والرصاص ونزرع بدل السنابل الجثث والشقاق.فكل جسد فينا يعرف طريقه إلى المقابر التي طالما كانت متنزهاتنا في الأعياد كان صائب سجحا معه وقد أغلق المجنون وجهه حانقاً وهو يعض على شفته السفلى ليلعق ملحة دمه، ويحدث جلبة بحدقاته فلا مكمن فيخبأ به. وألف مهد يهز قبل ولادة أطفاله... دفاتر وكتب محمله على رؤوس العباد وملأها بصاق المعلمين، كل شيء راكد في السوق إلا الأكفان فالرصاص يشتهينا أينما نولي ثمة شهوة للموت ترقبنا، المجنون يرمي صائباً بنظرة عطوفة وقد تحركت شفاهه بحروف زائغة:

– حياتنا لديهم كقدح شاي بارد في نهر أسن!

وحده الموت كان يريحه لولا بروز نوم الموتى بعينه لكاد يفعلها وقد بان ذهنه متأرجحاً بين يقظة ومنام وهو يومي باقتضاب بينما يمط صائب خطاه نحوه زحر وبات يبصق كلماته بانسيابيه وكانت الحروف تخرج من بين شفتيه بتقشف وقد دفع خطوات جسده بصورة متماسكة. وقد كست الغربة وجهه:

– في ظل الفوضى اثنان عاقلان أحدهم يهرب من العرق والآخر من العراق ....!!!

ولهذا أنا مجنون!!!

نزت من عيناه غرابة متهكمة وهو يسأل المجنون عن اسمه؟

– تحرير!!!

– تبا لاسمك فهو يقتلنا بنقاوة وبقناع مستورد مطعم بالمحلي!!

وثمة معتوه بارز الأضلاع من وراء قميص مدهن مرق أماهم يردد بفنتازيا

– لعنة الله على الأسماء المحركة فصاحبها يصاب بالمشاكل ويتهم بالشك والزور!!!

وقد أكمل هذا صاحب القميص المدهن وطرفت عينا المجنون وصائب نحوه وهو يقطع رأس طائر حي ويشرب من دمائه ! !

(لا جدوى من ابتسام الجثث)

وهو بائس يطفو عليهم متأزر مع أجسادهم أسر لأرواحهم. المجنون ساوره الحزن ثانياً وهو يعيد كلامه لصائب :

– لدينا مئة اسم للسيف بينما واحد أو اثنين للحب ! ! !

– ألا تشعر بالأمان؟

– أمان ....؟

قالها ساخراً

– أي أمان هذا إن كانت وزارة الدفاع تم نسفها وتفجيرها عن بكرة أبيها... !

وبات يجفل بين حين وآخر وقد خالطه بعض اليأس وهو يسمع ندف النغم المرسلة من مكان نائي قضى عمره يصور الموتى في أول مقتلهم بمسارح الجريمة. وفترة عمل بائع لأعضاء الجسد حينما كانت تجارة رائجة وقتذاك.

– غريب !

هكذا قالها صائب وأراد أن يسحب قدماه بخفة وقد أفزعه صرخة من المجنون :

– المال... لا صوت يعلو على المال !

وقد بدأ المجنون ينشد بصورة شاعرية بعد أن تغيرت تعابير وجهه :

– أهز النخيل مساءاً

فيأتيني وابل من الرصاص

أكرر المشهد صباحاً

فياتيني وابل الرصاص مرة أخرى

فأضطر لأكل ثمار الموت التي نجنيها ! ! !

المساء المتهكم ينتزع أوجه الدفء من بين دفتيه... أقدامه تدون على الطرقات وقد خالجه وطر بأن يترك ذلك المجنون بجنونه الذي أثار إعجاب صائب

- ليت كلنا مجانين!!!

هكذا قالها وهو يسحب آخر خطواته وهو يصعر نفسه ذاهلاً. نفض رأسه ليتأكد من وعيه ويجتر وحدته وبانت حالة المجنون تثير قشعريرة بنفسه بينما ودعه المجنون شاتماً بأقذع الألفاظ. حزن الصباح ليس كحزن المساء هكذا قادت التجربة صائباً وهو يتمتم مع نفسه بأجذع الكلمات.. يطرق مرمى الآخرين ببصر حائر... نحور رقابهم عارية دائماً مشرعة.... المكان واسع لجسد يتيه.. يولول مع نفسه بإشارة على المجنون:

– هذا ما تبقى لنا من الحرب!

ولم ينس وصية المجنون التي همسها بإذن صائب

(إن لم ترتبط بمكان تكون مشرداً بهذه الأرض الواسعة!!!) صور عرجاء... أم تزف في فم وليدها طلل الحليب.الآخرون عيونهم تتحرك بالمحاجر وتساير الجثث ياله من فقر مدقع... يزجي ما تبقى من وقتهم.صنابير ماء أحدهم ينهمر فيجتمع عليه الناس أما الأخرى فتجري ببطء فلا يقربها أحد رغم عذوبتها... ربما لأن المرء يحب العاجلة ومتسرع دوماً يلقي نفسه بالمهالك!!علب كرتونية وفضلات..... قناني أوكسجين... حدقات عيونهم وألسنتم المهذارة.... ووطن

حالم لا يوقظ من رؤياه وأضغاثه... ينقر على الزجاج بوجهه فلا يأتيه إلا طيف واهن يتبادل معه الأنفاس الملتهبة.. تشغل حيزاً في ذاكرة خمائله في الربع الأول من زنزانة لا يعرف كيف أرتادها.... مقابل الكوة النحيفة... يضع قائمة متطلباته بأشهى المأكولات فلا يأتيه إلا روائح اليوريا... يختض لا غرو فأسنى الأوهام هي صديقة مخيلته وهي التي تأتي بلحظات يحس فيها المرء إنه لا هدف له يسير

فيه.عيون القضاء ترصده لتقذى العيون... وقد أقنع قدميه أن ترتديا الطريق بحفاوة بالغة...من اللاوعي ربما... رغم أن بطنه كانت تردد بعض الكلمات الغريبة... يغمد نظرات فائرة... بوجه رجل حذام يشاقق نفسه ويطلق غمغمات... فيضانات من الكلمات تجتاح ساحة وجهه.. بنصيب متكسر يصبح الموت لديه حلقات وأجزاء دعس عليها الدهر عتياً...أفواه تتضور عطشاً... رغم أن الزرع يخرج شطأه.

- أخشى أن لديك عمى الألوان؟

هكذا صرخ البائع بوجهه حينما سأله عن مجموعة أزهار متجمعة بيد زبون

ربما لم يعتد أن يمتلك رجل أزهاراً ملونة بدون أن يبددها نثاراَ

الآخرون يتماوجون مع بعض وقد انتبذ مكاناً لاصطيادهم بنظرات... ثمة شيزوفرنيا تغلغلت في النفوس، وتردد في الهواء الطلق:

- كنا صغاراً نلعب مع الفتيات بكل براءة

ونمسرح ضفائرهن

ونشد أشرطتهن نهاراً

ولما كبرنا سرقتنا مكالمات السطوح

وعبث الأفواه الجريئة.

كلمات تعاجل بعض بالتقبيل.. لا أحد هنا يرتكب الأخلاق الحسنة... الجميع لا يحض على إطعام فوه... شعر ببرودة غريبة في أطرافه أظهرت جهامته... يدب في أعماقه إحساس ودوار يلفه بعنجهية تميد به الأرض وتهزه رعشه باردة... كأنه يمشي الزيفان...وقد صدمه معتوه آخر... بوجه كلثومي.. مكسى بانفجارات غريبة.. وطفق يسأل صائباً

كالمجنون الأول:

(يا إلهي ربما أنا في مصحة عقلية) هكذا قالها صائب وهو يستمع لسؤال مجنون ثان :

– إعرب كلمة لديك؟

بادره صائب بمسحة غضب:

– لا أعرف

أطلق المجنون ضحكة منفجرة من بين فكيه وحاجبيه:

– لا يعرف إنه غبي... إليك الجواب

حرف (لـ) حرف جر

و (ديك) يصيح على أسيجة البيوت فجراً ويوقظ أصحاب الشهوة السكارى...

بينما نحن لا يزيدنا إلا استمتاعاً بتلك العذوبة.

(يا للمجنون الذي أخذت البدانة من جسده مأخذا)

بادر صائب:

- أنا أشهر روائي مجنون؟!

- أنت روائي؟

قالها صائب مستغرب.

- نعم وسأسمعك مقطعاً قصيراً ولكن اقترب لأقراه على أذنيك حصراً

(الحسناء بشعرها الكستنائي وثوبها الوردي الجميل كانت تتنهد متغنجة على سريرها الحريري وكانت رائحة العطر الفرنسي تصل مسافة مئة متر عنها... لا تعرف من أين دخل عليها؟

من الشباك؟

أو من الباب؟

– يا كافر اصمت يا كافر

(تعالت أصوات الآخرين لاجمته)

تحاشاهم متجاهلاً أصواتهم ولكن ثمة حركات رعب اعتلته وهو يكمل:

– أو الباب؟

زحف عليها وتفحص جسدها شبه العاري وذكرها بماضيها الماجن المخمور وكانت ثمة علب زجاجية من الخمر تتوزع على غرفتها.. كان يهمس في أذنها عن مصيرها.... وقبض روحها.... الموت)

– يا كـ.....

انصرف الجميع... حرك صائب قدميه وقد أصابه الغثيان وثمة أقوال للمجنون تتردد في رأسه... قانعاً في بعض ما قاله.. ربما إن قدماه أهدته إلى عالم الحقيقة.. أو مصحى عزل من عالم الجنون الحقيقي...

من المجنون؟ هم أم نحن؟

زحفت الأسئلة مع قدميه خارجاً وللآن لم يدرك هل كان شارعاً في حلم مرهق أم حقيقة ستراوده يوماً لتعري عقله من التعقل إلى جنون هؤلاء... وربما أعجبه كثيراً دور المجنون في زمن يدعي فيه الجميع التعقل... ولا أمارات لذلك إطلاقاَ!!!!

–٣–

زمن عارٍ.. كلماته تسبح خلف كل بناء شاهق... أو واطئ... أفواه تفتح كالمجاديف تبحث عن أفواه عذراء لتقبيلها... كان يهذر وهو يضرب أخماساً بأسداس كأنه يدور في دائرة مغلقة لم يغادرها قط... يستطرف المارة طريقته في التحديق... يا لحزنه... إنه في لحظة لا يفقه غير التحديق.... شلة الأطفال يثرثرون عن لقطات آخر الليل... يشعر بدفء خارجي وبرد يقسو عليه من الداخل... يخامره شك أن

السيارات التي تمرق على عينيه تسير فارغة (يا له من روتين) الشارع نفسه لم يعتدل سوى تغيرات طفيفة على عبارات المارة التي تجعل الآخرين ينسفحون وثمة شخص قابع كعمود لا يهمه شيء... وبان عليه كأنه لا يتحرك حتى لو انطبقت السماء على الأرض....! بدا أنه التصق بالأديم ربما لأنه جزء منها... كان يجثو هكذا وهو يمرر أصابعه على وجهه الأجعد... المارة يخطفون بمعاطفهم عطفه.... وآخرون يضربونه بأحذيتهم

(هل لأنه كان يحمل سلاحاً بلاستيك!!)بقع سوداء محترقة تزينه... يقضي الليل نائماً على قلنسوته.. مفرق رأسه... وعرف عنه فيما فبعد أنه رجل يعمل في نقل الفحم فكان حينما يحمل الأكياس وقتذاك لا يعرف من يحمل من؟ هو أم كيس الفحم؟ حينذاك كان يحمل دفتراً ملطخاً بالدم كتب على غلافه (بيوت الزناة تنبت ورود وبيوتنا لا!) رأس صائب لم يعد يحتمل كماً غريباً من هذه الصور... الدائرية... التي تبتلع نظراته أينما ولت قدماه تعزيها تلك القطع السوداء المنتشرة على أشرعة الجدران.يا للجو الغريب... ندف الغيوم... وعواء الرياح... وقد قاربت خيوط الشمس بالذوبان... بدأ كيس الفحم بتصفيف شعره للخلف غير آبه لبياض متمرد أعلى رأسه.... وراح يطلق الأحرف من شفاهه وهو يعبُ سيكارته مطلقاً نظرة متعلقة نحو صائب... وقد أومأ برأسه:

– هل أنت ابن الشارع مثلي؟

– أنا.... أنـ... أنا... أنـ... نعم... لا.. أنـ....

– البيوت غير الشوارع... البيوت أسرار ولكننا في الشارع كتاب مفتوح لا ماضٍ لنا ولا حاضر ولا حتى مستقبل.

قالها وتفرقعت الأسورة الصدئة بيده أثار (صائب) وبان من كلامه وشحوبه أنه ذو نضارة منطفأة!

– لم أعاقر الخمر منذ سنين!

رماها بجرأة على وجه صائب وقد بانت عليه أحزان هائجة... أصوات تروج بضائع غريبة تسبغ عليه بفسحة من تراب.... يبحث عن نفسه في أصوات مسربلة قادمة من عالم آخر تزور رأسه حصراً بين فينه وأخرى... جيوش النمل تدندن جسده... وهو يلملم أطرافه في الأرض...

تستبين عيناه المارة.. طفحت عيناه بدموع:

- كنا سننجب أطفالاً نوزعهم على العالم في كل وادٍ يهيمون... طفل في البحر وفي البر وفي كل قطعة كنا سنخلق طفلاً صفاته تكتظ بالاحتراب... رطلاً من النساء يمر ليقذفه بألفاظ شتتت حديثه مع صائب.وصائب يتابع وقد صدمته إلى آخر العظم في بدنة كلام النسوة بحق هذه الكومة البشرية من الفحم... كاد صائب أن ينفض مع المنفضين... لولا همسات النسوة الذي تحول إلى شتم وعذال.(هذا الرجل الذي قتل زوجته التي رآها في فراش صديقه وجاره).تلك الكومة لم تبارح مكانها حتى مع الجملة الأخيرة التي أطلقتها شابه كانت تضع قطعة سميكة من الماكياج وكأنها كانت على موعد حميمي ينتظرها.البقعة المجانية تعج بالناس... وهو عيناه تسرحان عبر نافذة جامدة.. عينه تبرق في وسطها كأنه يحدق لشيء ما... ترتجل في مخيلته هواية الكلام... مع آخر لا يسمع... والآخر ربما يصيخ السمع... أية مدينة هذه بلا أنهار... فيها البحار قضت نحبها... قلوب أهلها يناطها حشرجة متشظية.. يهيج لواعج حتى الأطفال ربما لأن الأطفال لم يعودوا يتصايحون مع البلابل بل نفوسهم تتناغم مع أصوات الرصاص!!! يشرب ارتواءه من ماء الساقية وقد ازدادت حاسة السمع لديه استنفاراَ... حتى إنه يسمع همسات العشاق في آخر الليل في أسرة الخيانة... هكذا شاع عنه... التصقت

ملابسه بجسده وهو يحاول أن يمسك حبات الضوء وقد لونت الشمس بشرته... لحظ دمعة منزلقة من عيني صائب... (هل بكى هذا الغريب عليّ) بهذه الجملة راود نفسه:

– لا تبك على الموتى.. نحن الأحياء من نستحق البكاء!!

نحن من لا يحتضن فضائحنا إلا الأنهر وهذه المدينة عاقر لا تنجب الأنهار....

ما هذا؟ أية مدينة تلك التي ربع سكانها مأواهم الشارع ربما كما قال كومة الفحم (الشوارع تختلف عن البيوت)

– سأكلمك عن أكذوبة الفرات ودجلة.. فهي ليست أنهاراً إنها دموعنا التي أورثناها منذ زمن بعيد جداً يمتد إلى جذور حضارتنا القديمة... (ولكن أجدادنا خلفوا لنا أكاذيب عدة!) قالها لصائب وهو يسحبه للجلوس...

– أنت في مدينة تحمل فيجهض وليدها جنيناً مشوه...

قالها وكأنه كان يود انتزاع النصر من بين فكي الهزيمة... التي يشعر بها...

ثم طفق يداعب خطوط نظرية فيثاغورس التي رسمها على مساحات جلوسه متمتم بهذيان كان أقرب إلى أذني صائب... وقد اختلط الكلام بطلب أحد المشترين من البائع المجاور أنبوبا جديداً.

– يجعلون أنابيب بيوتهم تصدأ ولا يحركون ساكنا... ماذا لو كانت تلك الأنابيب شراييـنهم؟!

أية مدينة تلك التي تجعل سكان الشوارع في حرب مع سكان البيوت وهل صير العصر والزمان إلى متجمد يقسم إلى سكان بيوت وسكان شوارع... وماذا عن نظرية الصعود والنزول هل هناك ثمة من ترك المنازل لصالح الشوارعيين وهل حصل العكس!!!ربما هو خيال عارٍ لا صحة لتجمعات جملة وصورة ربما هي ذكريات تسقط كأوراق الخريف وتذبل كشفاه من يعيش بهاجس ماضٍ... لكنها ندية في

قلوب أولئك الذين يعدون قوت يومهم وحسب... ربما لأنهم أصحاب قواسم مشتركة... أزقة تعج بالكادحين والمقهورين.. وخلف كل رأس فيهم قصص ولواعج ربما ستدفن مع أجسادهم دون خروجها من حيزها...قرى ومدن لا صوت فيها إلا للأنين... وهاجس القادم... حتى الضحك وكلام الغرام والحب هنا فهو لأغراض المجاملة والنفاق الاجتماعي وحسب... ينام المرء وخلفه آلاف الخيوط المعلقة بأثوابه... وكم يتمنى المرء هنا عندما يخلد على وسادته أن يسارع بإغفاءة بدلاً من التقلب ذات اليمين وذات الشمال... وآخرون يتمنون أن تكون آخر إغفاءة في مشوارهم...!!!يا للفريق الغريب الذي يجمع الأحمق والأخرق والمائق والرقيع واللكع والهجاجة والمخبول والأنوك والذولة والعرهاة... والأولق والمهووس والهلباجة والجذب والرشاع ...فتيات يعلقن قلائد ذوات عبارات مختلفة... يثيرن بمروقهن أعين صائب وكومة الفحم النابضة تلك، إحداهن راحت لاعنة الدهر وهو يدرك تماماً أنه في طول الدهر لم يكُ شيئا!!!

تساءل مع كومة الفحم :

- ما الذي يبغي المرء من الدهر؟

وما هو الشيء الذي يود أن يناله؟

(السلطة، المال، الوجاهة، اللذة)

دارت في رأسيهم عدة تساؤلات (هل ثمة شيء آخر يبغاه الإنسان؟) وما الذي يدعو صائباً أن يتساءل مع شخص زاهق للنفس مشرد...وحده الضياع والشتات كان جامعاً وقضية لأمثالهم!!!فخلف كل مشرد قصة مؤلمة لا تقل أهمية عن القصص التي تخص البلاط ورجالاته التي تحكي عنها مسوخ الصحافة والتاريخ.

الفصل الثالث

-١-

ما أصعب أن يولد الإنسان بلا مواهب لأنه سيكون عليه استجداء عطف الآخرين لينال مبتغاه بعطاياهم ... إنه زمن نحس ورجس الذي يرسم هذه الصورة المنسلخة ذو إطار متهرئ تعلوه مسحات أشبه بالبالونات المنتفخة بحجم منخرط كبير ، والسام كالسم في جوف الإنسان إذا تسلل له أرهقه وأنهكه وجعله في عداد الموتى مؤجلي الدفن ... عطب حياته المستمرة مع بقية الحيوات هامشياً عطب ككلب أخرس لا يقوى على العواء وقصاصات ورق متطايرة مع جسده الذي لم ينفك من الحركة مذ هجر القرية ... يلتحف السماء ويربت بقدمه على الطارق

وعيناه تتقافز هنا وهناك ... الحدائق ترتوي بعرق العمال اللاهثين ... يتساءل مع نفسه بهدوء ضاجر ....(ماذا لو امتلك إنسان كل العقارات الموجودة في الكرة الأرضية ؟!) ينفق وقته تارة بالنظر وأخرى باستدعاء ذاكرته المملؤة بؤساً بلون السواد القاتم ....يدرك جيداً أن الموت وحده هو الخلاص من الحياة التافهة وان الدنيا ليست له ! !ربما لم يقدر لاحد ان يموت أكثر من ميتة في حياته ...

براءة العتمة المفروشة على طول الطرقات ... وهي تحمل الأجساد بلا مقابل .... يتسولون عليها وينامون ويأكلون ويتقاتلون ... ويمارسون كل لذاتهم ورغباتهم بدون ريبة ولا مقابل ... (هل يسير العالم إلى المجانية !؟)

آخرون يرتكنون في زوايا الطرقات ينتظرون الخط بشهوة ...تمر الأيام عليه وخوفه بترحال لا يتبدد ... ليلة على الرصيف... وأخرى في فندق مراحيضه فائضة من البول ورائحة اليوريا وغائط الزبائن الذين أغلبهم من المتسولين ودافعي العربات ... يملئ بحقائق الكذب والغبار ... ومزيداً من العمر المنقضي ..

والساعات التي ترحل بهدوء الأميال وتقضم سنون العمر عنوةً ....

يستل كسر الحياة ليأكل جميلها ويقذف أرذلها ... يدرك جيداً أن حاجاته الضرورية تبقى مبعثرة على قارعة الطرق ... ربما سيبقى مع الحفاة من كل شيء في الاخير ! ! !....فمن جالسهم للان يحتفون بالمعاصي علنا ويتبعون خرائط ماجنة تقودهم إلى دوامات مظلمة ...الاحجيات والفتيات والاحلام تموت تحت بسطاله الذي يشبه حذاء الموت على السواتر ...مع إعلان الصباح اليومي في مكان ما يؤويه يستذكر وسادته المبللة بدموع عرقه في بيت الست آمال ... وفراشه الذي يظنه الان ملء بالخيانة ...تحدد جسده النحيف أوجاع تضطره إلى الخلو وإلى التفرد والعزلة كثيراً ...أجواء المدينة هي الأخرى جعلت منه ينفتح على عالمها شيئا فشيئا ... رغم انه كان يسبر عوالم أخرى ... غائرة حد التماهي ... يستمع لموسيقى (صمت الموت) نوتاتها احاسيسه المتحجرة وايقاعاتها ثلمة من جسده .... يملئ كاس الخذلان لذاته حد الثمالة ... حاول ان يتزحزح عن مكانه ... فكر أن يبيع قلبه مقابل حفنة دولارات لأنه يعتقد لا ضرورة لقلب في جسد كجسده (ما الحاجة لقلب لا يحب) .فالحياة لديه أضحت طعمها مالح ومر ... دون جدوى لن ينفعه صراخه مع نفسه ...تناوش نفسه بجدية وفكر ان يعود ليحرق فراش الخيانة ... ويذر الرماد بإحدى القرى او البحار ... في الشارع المحاذي للمجمع التجاري لمركز المدينة حيث الاسواق الكبيرة ومحلات التصوير وحلاقة النساء وتزين سيارات الاعراس وفي القرب من التقاطع الخلفي حيث عشرات الارامل يصيحن كالطيور المذبوحة .... استأجر سيارة تاكسي وطلب منه أن يقله لعنوان كتبته له الست آمال قبل أن ينهي قراره بالمغادرة ... وكان يبدو قلقا بعض الشيء ...يطرق بعينيه من زجاج السيارة .. هيئته متهرئة كان يحس أنه لم يفعل يوماً شيئاً جميلاً في حياته ... انتظر أن يسأل السائق عن مقدار الأجرة ريثما يحين وقت الوصول إلى العنوان

المقرر .. تتكسر أشعة الشمس فوق رؤوس العباد وهو يطرق بطرفه إلى السماء ويوجه نظره إلى المارة كأنه يكلم أحداً ما :

– (لا تبحث عني لأن الشوارع تضيق بحالة الحرب وأين ما أولي فثمة حرب تنتظرني بشوق المحها عن بعد تفتح لي ذراعها لأعانقها بلهفة لتزرع قبلها على جسدي) .كم سخيف ان تكون حربا خاصة بك وحدك !!!يكاد يموت بالثلاث كما الطلاق ... رذاذت السماء تمنحهم اطمئنان وقتي!! فحينما تسيل دموع المطر ، باكيا لأجل دواخل البشر ، تنتفض الأشياء ، وترفع الأصوات هاتفا جراحات الألم تستطيل حينما يهطل المطر ..الكون فرح مبتهج الأجساد تتطاير في احزانه وأفراحه وأوراق الشتاء تتطاير من ملامسة قطرات المطر البلورية ، الالق يحوط بالأطفال، الشابات يحملن حقائبهن راحلات إلى الجامعة ـ الصبية يلهون في الشوارع بينما كان المطر يلامس الأرض التي تطأها إقدامهم التي وصلت لأخر المطاف حينما توقف المطر ليعلن الدفء دقات تتراقص على صقيع الشبابيك المغلفة ببراءة الطفولة تحكي لنا فصول الشتاء الملونة ـ ونتغطى بلياليها الطويلة حلوة القصص... وفيها الدنيا وفيها دواخلنا تنزع المجاهيل ونغوص في الارياح نشم عطر الالق رحيقاً ونتزود منه ، ونترك الأدران خارجاً حينما تحيطنا الكرامة والحنان ، نكون امة امنة تشم عبق المطر ونتوجس خيفة من الظلام حينما كنا صبية ننام مبكرا على قصص الأمهات ، نسمع وننتبه وحينما كبرنا صرنا نبحث عن حروفنا الأولى ، وصرنا نبحث عن ذكريات مشاكستنا للمطر في الازقة والاحياء... نغفى على حنين الأمهات ، ننام في كنف الزمان ونحلم بطيات الخوف ، ونسعى دائما للحب والحنان ونبحث عنه بين الدروب ، وحينما نلقاه نخشى ان نفقده نبقى متمسكين به خائفين وجلين الدروب الموحلة بمطر العام الماضي ومن أزيز اللاشيء.... دائما نسعى للتبرير دواخلنا جريئة ومشاكسة ، نتشبث بالجمادات وتعجبنا الشكليات ، نروم لنا

ولذواتنا ، وننسى اننا راحلون يوما ما ... نبكي دموع عمرنا السائر بصمت ، تشابه تلك الدموع التي ذرفناها حينما كنا أطفالاً ، ونرتشف مطريات الحزن كالتي ذاقها السابقون في المتاهات ، ونبحث عن قبس يخلد الندى في نفوسنا للأزل والمطر ماء والماء دموع والمياه نشربها ونغتسل بها ، وكل شيء حي خلق من الماء ، ً المطر يهمس للقلوب الحانية ، التي يملئها الصفاء ليكلمهم عن هطوله في البقاع...المطر لغة تعبر المسافات واللغات وتهطل بكل الأرضيات تمسح دموع كل البشرية وتلامس معاطفهم ، ويشاهده كل الاغيار ، يختبأ منه الآخرون ويهيم تحته الآخرون ، وينام حينما يهطل الباقون أما الباقون فهم يفرحون لنزوله بينما الآخرون يبكون له ... وكأنه كائن حي يزور طبيعتنا مراراً ... ربما هو الوحيد كان يزرع على صائبا فسحة للتأمل ...في الطريق إلى العنوان المحدد ثمة أمور متناقضة كما يحصل في حياتنا ... من هنا وهناك ثمة اموات هجروا قبورهم واعلنوا حالة حرب على الأحياء ... وراحوا ينتشرون بلا وازع ولا رادع ...شخص جرح بدء من رأسه وإلى رقبته ثم ذراعيه فبطنه وارجله ... تسيل الدماء من ارنبة انفه بغزارة لا يخرج منه الا الصفير ... وربما غزى هذا الكون سكان من كوكب آخر !!!فعندما تغيب الأخلاق نتوقع كل شيء .. وتغيب الرجولة والأنوثة معا وتخون الفتاة بكارتها لصالح اله مزيف من صنع ورقات من صنع البشر ... تخلص من النعاس والخمول والسائق ينادي به بان مشوار كبير قد انقطع من الطريق ...نظراته تزيل الغبار عن تقاطيع وجهه فهو يدرك جيدا مع حدقات العيون انه لا فرق بين الجدران المتاكلة والجدران التي توحي للناظر عن ارستقراطية ساكنها ...فان السعادة تكمن في الذات ... وما الخارج الا شكليات اغلبها مصطنعة ....!!!عند واجهة مقبرة (الموت حق) تذكر هدير الطفولة المسفوح وشحة الدهر بغرس انيابه بجسده البالي ... قابله شخص خمسيني اصابع يده اليمنى مثرومة في ماكينة معمل يقبع بالقرب من تلك

المقبرة ... صافحه بقرصة خفيفة وراح يهذي ويملي عليه قانون المقبرة الصارم (ابن الكلب إنه مجرد مشرد ابتلى بعلة جعلته يفضل العيش هنا) قالها مع نفسه بصمت وهو يهم بالدخول إلى بقايا المكان ..الزمن الغائر لم يلاشي حلمة بعد ... ولكن للان لم تلتئم جراحه بعد ... القبور لم تنفث بروائحها لقدومه ... في جانب المقبرة الايمن كان هناك بناية مهجورة صيروها صالة للولادات المستعجلة ومحلا لتغسيل الموتى المغدورين ... وليس كل الموتى بل فقط اولئك الذين ماتوا بشرف وحسب ما نصت لوائح القانون المعلقة ... في لوحات اعلاناتهم وقوانينهم الصارمة ... القبور بنتوءاتها البارزة وشموخها المائل نحو التربة تثير المنظر برعب ووقار ... للتو غادر الدفانون بعد ان دفنوا جثة عذراء لم تفتض بعد ...ولم تلمسها يد حبيب ... مراحيض المقبرة على الهواء الطلق لكنها تضع شروطا قسريا على مرتادها حينما يرقد الأموات ويبدأ الدود بأكل لحوم الموتى الجدد ... ويفتتح منكر ونكير السؤال ... ويغادر أهله ... حينها سيكون كل شيء مستساغ لصائب...!الرجل الخمسيني وسبحته التي صنعت من الحجر الصيني تصدر اصوات وانفاسه كذلك فيضطر مراراً أن يذهب دون رأسه ليأتي بالطعام ويرتوي من بقايا علب ماء الورد الزجاجية التي ترش على القبور ... نزيف الموتى من خلف الحجر يغرقه حد السكر

ليتناءى كخفقان الامواج التي تكاد تكون تطبق كل القبور ليحال إلى ذبابة متشرنقة.داخل كومة من الحلوى ... بعد ان خلع نعليه ... جلس (صائب) في مكان يليق بالجلوس وراح هواء المروحة الأرضية ... يقذف عليه سموم تلفح وجهه الموشح بالغرابة والألم والحزن والمختلط بالشجن راح يستذكر علائل النسيم ... وهو يرقد تحت سعفات القرية ... وإذا بمقدمه وجهه تغرق بـ بصقة (تفووووووو) ظهر كأنها تساوي نصف لتر بيرة مصحوب ببقايا علكة مرة انطلقت من فم الخمسيني

أجاب صائب بعجب لم يسبق له مثيل بالنسبة له :

– لماذا تفعل هذا يا حاج؟

أنت بعمر والدي رحمه الله ولا أريد الرد عليك بالمثل ؟! أجابه صاحب الأصابع المثرومة والصبع السادسة الزائدة عن الحاجة في قدمه اليسرى ! ! !

– لقد كتبت الست آمال انك تحتاج إلى عمل فلماذا لا تنفض كسلك وتبتدئ عملك باكراً ... ككل بقية الذين يعتاشون على الموتى

(يا إلهي كم أنا حقير وتافه جئت أبحث عن عمل بأجساد الموتى)

قالها هكذا ولأول مرة منذ سنون طفرت دمعة شقية من إحدى عينيه دون أن يثير ذلك انتباه صاحب الأصابع المثرومة .أخبره بأنه سيغادر غداً باكراً وطلب منه إمهاله الليلة ليخلد إلى الراحة ... لبسته الكأبة جلبابا من حرير وتنفخ غيظه ..... قدماه تململت من الترحال والتجوال ...يده تتحسس بقايا نقوده وفمه يتهيأ للاكل ويصدم بانه لا شيء... في هذا العالم يأتي بهذه السلاسة ... كفاه قاسية حتى حينما يتوجه للدعاء ... فانه يلعن اليوم الذي ولد فيه وطالما لعن رحم والدته وظهر والده ... الذي تسببا في وجوده...وصاحب الأصابع المثرومة لم يزل يطلق نظراته الشزراء ... الظلام يزحف على القبور يفزعه التوحد مع الظلام وفوق الظلام وحشة القبور ....زمنه وظرفه أضحى كالحلم الكئيب .. يده مملوءة أظافر طويلة تحت طياتها غبار يعود للمقبرة .... لسانه متوهج لا يعرف بما يفكر حتى ! ! ! ! ورجل يجلس بجنب قبر اخته الشابة لانه يظن انها تستغفل رجولته وتخونه عند كل ظهيرة غيابه ! !لامست خداه كفه تحسس بؤسه وخشونة روحه وهي تنهال على جسده بوابل من الشتائم واللوم ... عيناه تكاد تخرج من محجرهما تكاد تكون الدنيا قد لفظته بعد ان طلقت به حد الممات ... عروقه تنتفخ وأعقاب السكائر تتطاير من امامه كالدنانير فوق راس العروس وكالحلوى فوق الطالب الناجح ..يصمت ويطلق ضحكة ملء شدقيه ربما أصابه الجنون ... قرر أن يطلق العنان

لنفسه ويذهب ليزور كل القبور التي جاورها بهذه المدة القصيرة ... ففي بلد مشرع لانواع القتل كافة يلفه التشرد برباط ويتوارى خلف هذا القبر ... وذاك ... وفي ضحكة حزينة جداً ترزم المسافات الشاسعة بين القبور ... ويترك ورائه عواء الذئاب ونباح الكلاب ..ينادي دافنشي ليحل شفرته عله يفتح بذلك حظه العاثر ... ربما ليس الحظ ربما هو من كوكب لا حياة ولا حياء فيه ولا دبيب إلا لجسده ... خطواته متثاقلة براس منكس يستدعي السياب نائحاً (أين أنت يا سياب سأمنحك وجهي مقابل أن تمنحني بعضاً من بؤسك ... أين أنت يا علاء ... وجاسم ... وأمل ... ومحمد ... وحيدر ..أين أنتم جميعاً ... أخبروني ماذا لقيتم لألقى مثلكم بعجالة .... بصوت مملوء بالنشيج:

-١-

أنوار تعكس ضوء المساء ...
فتخرق مساماتي ...
تعللني كتاب مفتوح ... فانشرح ...
لصداقتكم ... طعم خاص ...
عبث اللا وعي ...
رفقة الأزقة ... ولهو الأحباب ...
وثمة قادم ... محتضر ... ينتظر الآت...

-٢-

نترامى ... بلا شيء ..

بل نترامى بقلوب صادقة ...

فنجني صداقة أخرى ...

لا تحتضر ... مع الآت...

-٣-

الطريق الوعر .. يفكك الآتين ...

يمزق قلوبهم .. يترك أجسادهم

لكن الطريق الآخر .. يحتضن الأصدقاء بشوق .. اللقاء

-٤-

لنجيء معاً...

بعد أن نجيء ....

نطلق ... صداقتنا / بأثر رجعي /

تلك الأولية في كل مكان ...

لنجيء معا ثانية ...

ولكن هذه المرة .. مع كل القلوب القريبة ...

-٥-

الأمكنة بددت صداقتنا ...

الزمان لاشاها ...

صداقتنا معلقة

على أطر صور الذاكرة المرتجفة ....

ولكن ؟

الطرق / القلوب / الذاكرة /

جمعت شتاتنا من جديد ...

ولكن ثمة من ينقصنا ...

يدور حولنا ... كحمامة سلام

هاربة من قفصها ....

فهل يا ترى ...

ندرك ذلك تماما ....؟!

-٦-

بقعة ماء تفجرت ذات مساء غائم

أبكاني منظرها، تقاطرت للأرض

هوت كثيراً، تماسكت بالأديم

تركوها هكذا تخلد

انفجرت البقعة فأبكاني منظرها ثانيةٍ

صاحبكم :

صبح تلاشى بغبار الغريب

احترقت أثوابه بنظراتهم

وأضحى بعد مطر طويل

(خطية)

إنه بالضبط بالضبط

جرح لا يندمل

مع زبد الاغيار

ثوب اسود ممزق

وشريط احمر متلفع بالدماء

ونواح وغمغمات

وهواجس لا تنطفئ

مع انطفاء مواقد الشتاء ...

وإن طال ليل النهار

يداهمه النوم وهو يستدعي

بصراخ أشبه بصراخ الثكالى ... صوته بدأ يخفت شيئاً فشيئاً ليجبره التعب على الارتماء ارضا لينام بين سمائه وعلى اجساد موتى .. لا يفقهون ... شيئا من صراخه ... وهو يتكهن بالفاقة لتنسف مدخراته الذهنية ...يبسط كفيه على نباح الكلاب الذي هو اشبه بالتكنولوجيا الحديثة لأنه منبه بلا مقابل الألم يعتصره ... معاضد الموتى تودعه ... يلقمهم بزيد من ذكرياته الماكثة خلفه بعسر ...يترك لهم صنم مسجى ... أزقة المدينة تساعده على المرور عبر ممراتها .... المهملة ..

ثمة بون شاسع بين أن يعيش مع أموات دفنوا وآخرين ينتظرون ذلك ! ! !

قطعة لحم بشرية مرمية في مكب النفايات ... كانت محط اعجاب له رغم أن من يقلبها بمخالبه كلب اجرب !!! انزلقت من بين اصابعه جلمود ليتجه بسرعة صوب راسه الكلب الاجرب ليخلف قطرات دم نازفة ... منذ زمان لم يعمل ضميره ذلك المركون جانبا دائما للبؤس ... كانت هناك ثمة جموع تتجه لمكان مغادرته ... توقف ليرى النعش .. ملفوف بعلم بلاده ... وهو يرفرف بكامل قيافته واناقته ... ومعطر بارقى العطور الفرنسية ... واصوات ترتفع من هنا وهناك .... (لا إله الا الله) بان حاله كأنه يبحث عن شعرة طفلة قد خلفها زمن البراءة اعواما للخلف ليهديها لها في عيدها العشرون ليقدمها لها بظرف مغلق من الزمن الماضي !!!توقف جانبا يعض على شفتيه ويمص كسرة خبز جافة ... شارباه يهتزان سار قليلاً وتوقف ثانياً عند أول بائع دون أن يجرأ أن يطلب شيئاً... يختلس نظرة رامقة من هذا المكان ويقف منتصب مطوقا لظله ذو الرائحة النتنة ... لحظتذاك ..لم يثنه طول المشوار ... يتوغل في كل ازقة واسواق المدينة ... وهو يتباعد شيئا فشيئا عن مكاناته ... بيوت منخورة الفضاء ... متسولون بيد واحدة ... بناءات رابضة خلف النوافذ الزجاجية ... المعامل تملء عينيه بأبخرتها التي تتدفق على هواء المدينة ..سوق البنات جسد ممشوق تلهث وراءه انياب الذئاب المستعرة ... على امتداد الافرع الرئيسية ينفذ زيت السيارة التي ركبها لتقله من مكان لاخر قريب ... بنو البشر مرميين في كل حدب وصوب ... كقران مهجور ... طفل ملتصق بشعر والدته يبغي دفء من برودة قساوة الزمن ... بدء حليب الام وقد جف .. والطفل بقى معلقا كالزجاج المتحطم والمتلاحم ينتظر هبه هواء لتحيله قطعات صغيرة لا تنغرز بأقدام المارة الحفاة ...

-٢-

رئة الأزقة تغص بالاجتراحات وتتشابك برأسه دوامة الكلم .. كاد رأسه ان يلتصق بالأرض وهو يذب بكفه الحشرات التي تحاول نهش وجهه ... العابثون يرزحون على الطرق يودون ان يندسوا في صدر بعض ... وجوه تحترف الرياء .... ونساء يحارن أي فم يطعمن وجوع مدقع يفتت عظامهم .... في وطن يقاد إلى المشانق عنوة كسوق الشاة .... ليفقأ شيء برأسه لحظتذاك.. وقد داهمت عيناه يافطة علقت على الجدران تخبر المارين بحاجة (المصحة العقلية) المجاورة إلى عامل .. لغرض المراقبة والاشراف ... نفض رأسه فتساقط منه زمن متحجر وهو دلى برأسه بين قبضتيه (كم فضيع أن تعيش مائة عام في لحظة مارقة!!) ويحار أين يذهب؟ يستجدي لسانه عطف الكلام وقد جعل من نفسه وضع زراية ... رعونة الريح وظبة الأفق جعلته مرابط هنيهة ليطلق عنان الحزن ... في بلد أطلق حظر تجوال الفرح فيه ... لتسقى خضرته دما عبيط ... فالرصاص يسقى ويزهر مع الاشجار .. تجمد الكلام بفمه وكان قدماه شلت وذهول يتفرسه قبل ان يحملاه قدماه إلى عنوان تلك اليافطة وثمة صراع قائم بين ارادة ورفض ؟ ! وربما العيش مع عالم الجنون لهو افضل من تعقل المنافقين ؟؟؟يسجي الإنسان مقهورا ذاعن لإرادة القوة .. والتسلط هكذا كان يعتمد على تفكيره صائبا عند كل محاولة مهزومة .... وفي واجهة المصحة رجال يفتحون افواههم كاملة ويطبقونها بأحرف عصبية ... صبية يتراشقون بكلمات غريبة تدل على سذاجة واضحة في المكان ... شباب يسودون دفاتر الصبا بعبث لا جدوى منه ... والاسفلت يقرض نعلا مستخدما فيما الشمس راحت تتملظ في عينيه .. وفد اليه الوجع مع عواء الريح وهو يجتاز اولئك الذين يرتقون اثوابهم ببخل ... تفل مخالبه .. وقد خاصره الجدار الصامت ... طفل يوزع بكائه على المارة في الداخل ... مسامير تعلقهم على فرط الاصباغ ...

يستعيرون ساعات مضنية يجزمون بها دموعهم التي تبلل الاسرة ....وقبل المدخل كان الترحيب روتيني ... جعل يتجمهر بذاكرته سخرية لاذعة ... استقبلوه اثنان ممن جار بهم الزمن ليفقدهم جوهرهم المتين... أحدهم ثمة خيط يعبث داخل فمه كلما اراد الكلام يسحب صالحه ... يتعلق بأذياله وآخر حجم كيس النايلون يطاول طفل يحمله ... وقد بان أن الزمن اجهز عليه ... وبعد وهلة بدأ هذيانه وهواجسه تقتل ريادة الموجودين وهو يساوق خطواته مع ظله الذي ارهقه المسير ... وفي غرفة الادارة لاح شاخصاً له رجل متوسط العمر ببذلة رصاصية شبه أنيقة وحين ألفاه جالساً مستديراً جانباً وفمه يكاد أن ينطمر من الصمت وأنفه يكاد يضمر ... كان مرت سنوات لم يشم عطراً جميلاً !!!بادره بموضوع الإعلان ... وقد حرك رأسه مؤيداً كلامه ... انسحب وتغالبه رغبه ما ورائحة النعاس تلفه من راسه لأخمص قدمه ... وكلما اراد ان يهرب بعينيه من سرطان الاشياء التي تحوطه يصفعه منظر أكثر شدة لتثقب عينياه وهو يحمل موافقة العمل في اتجاه المخزن الذي يسبه الغرفة التي ستكون مسكنا له ... وكانت خطواته لهناك وكانه يعد جدب ايامه المتبقية (العيش على المجانين افضل من العيش على الموتى !!) هذا سلواه... وهو يتشمم اثار الدروب متعقبا بقايا همومه ... بدت المصحة كبيرة المساحة تتوزع فيها كل الحاجات .. وبدت بحجمها يمكن لها ان تكون مدينة او حتى دولة ...(يا لشساعة تلك المصحة التي تُعد للمجانين حصراً !!) في الخارج غرف مرقمة وقد اشتعلت رؤوس من خلفها شيباً ... يتبعون عيون بعض ... والأضواء تغفى فوقهم وتضمحل ... وعشية كل ذكراهم ينكدون حاضرهم بماضيهم ... فلم يكس عريهم إلا الجنون !!! ومهدئات اصطناعية ربما ...! حيواتهم تتوالج .. أجسام مرعوزة ... يجهلون طوبوغرافية الأماكن ... وأحزانهم تتأبد ... يستأجرون قبورهم باكراً ... الرتابة تمثل أمامهم كل يوم .... يزحزحون الجدران الأربع بإصرارهم ...

ليتركوا لأقدامهم الخيار لتنقلهم حيثما شاءت ورست .. فيعود بهم عقلهم داخلا . أي جنون منطقي هذا الذي يملكون ....!!!صوت اجش صلب انفجر وهو يحاول اطلاق كلماته لتبان انفجار تجاعيد فمه ... ليلوذ الجميع بفرار الصمت ... يسحق الكلمات قبل ان تقفز هاربة من فمه ... يرتج بين حاجبيه عصب غريب وجعل يتابع السير ... ولم يشأ أن يقاطعه أحد من مساعديه ... هكذا يهمزهم المدير لو خالفوا قوانينه الصارمة (تباً للقوانين إنها في كل مكان .. ولكن الفوضى تعم كل مكان ...!) وقد عرف صائبا فيما بعد ان هذا المدير من اصحاب الشهادات الذين شغلوا عمرهم بالدراسة ...(مسكين بعض الناس ينشغل في طفولته بالبحث عن المرتع والملعب والاشياء الجميلة وفي مراهقته وشبابه عن التفوق والدراسة وفي نضجه عن مركز عمل لائق وبعدها يدرك ان عمره ازف هباءا منثورا ...!) صائب اراد ان يغير دفة الكلام ... وجوارح الآخرين تلقط نتفاً من همساته وهواجسه ..... وهو يحذر من مغبة كبرى ... وصاحب الأسنان المصابة بالتنخر والأنف المعقوف ... (المدير) لا يبالي ... لا يصغي.... لا يتوق لسماع ذلك ... وهو يطوف حول نفسه ليسمعهم الخطاب اليومي ! وبان من كلامه أن حياته مملؤة فراغ وسديم ... وقد زحف صائب أسيان على الحياة اللا نظامية ؛ وستائر المصحة السميكة تصد أصوات الشمس التي راحت تغادر بأسى اصفر ... وفي تلك الغرفة صائبا وحيدا وثمة كابه تمد جذورها لتطحنه ... يدثره صفير يقلم تطلعاته ويمتطي كاهله ... وهو بحالة مزرية لج نفسه سؤال وهو يسح دمعة يتيمة وقد عانقت السماء عيناه:(الإنسان هو من يخلق عالمه .... فلما هذا الحشد كسول!) يلتجأ إلى زاوية مأهولة بجسد ذاوي امتصه مرض وتخشب جسده وكأن غسيل لدماغه جرى خلال هذه الايام التي مرت به دون عناء وتكلف جسدي! وقد راحت قبضتاه تدقان الجدار الصامت وهو بحالة انهيار مما سببته له الايام التي عايش في شخوص مسحوا

حواسه وغيروا وجه تطلعاته ... ربما سلواه أنه يدرك جيداً أنه لم يمكث طويلا هناك... خطواته تدق الأرض وهو يستطلع الطريق... كثافة الحزن تتجمع على تفاصيله ... وقد ضبط لأول مرة أحدهم يبتسم بصدق .. وهو يرسم على الرمال رسومات طفولية وبيت حلم أن يسكنه ... أنات المداخل والطرق تهاب اجتياحاته المباغتة ... فخلف كل غرفة سر يخشى كشفه (يا ترى كم يكابد البشر من قسوة لكي يخبئوا أسرارهم وفضائهم وأكاذيبهم) قالها وهو يكمل خطواته ...تختبط عيناه التي تمطت مع قدماه وثمة من واجهه يصدر كلمات غير نظيفة ولا مشذبة من اجل كسب رهان ... يصدع راسه وينفرزه بصوت متعنت (لا أريد الكهرباء ... لا أريد الكهرباء) يا للثورة الصناعية التي اجنت نصف البشر عبيد للآلة ... صاحب الأنف المعقوف والأسنان المصابة بالتنخر لا يروقه تعامل صائب مع نزلاء المصحة ممن فقدوا جوهرهم ... من نافذته الخاصة ثمة عيون ترقب حركته ! العيون التي لا ترحم ناظريها وكم من امرؤ يتمنى لو كان اعمى لا يرى عيون الاخرين وهي ترقبه وتراه بتلصص! ولكن صائب بدء يدرك ان الغربال ما عاد يفعل عادته القديمة فهو لان يحجب حتى ضوء الشمس عن هذه المصحة !! والشمس تنزف بخيعها وقد ظل ساندا وهو يدرك كم ينسحق خلف هذه الجدران من اجساد كثر ... يمور داخله قلق عويص... وهو يعكف لفتح المذياع الذي بدء يتكلم (ليس كل ما يبدو للعين حقيقة) وقد ظفر بهاجس خوف يزيد النزلاء جنوناً ... طريقة صاحب الانف المعقوف في التعامل القاسي ... انفساح الافق ... ووطن يضام ... وقسوة رقطاء محفزات جعلت نافلة شحنت من مقدراته في المواجهة ! وصائب يتمتم (لا يجتمع الفرح ومثلي .. فلما السكوت) وقد أصابته دهياء الليل وهو يخمن عجرفته ودرجة غليانها ... ويصرف نظره عن التفكير بالأمر وهو يدرك انه داخل كل إنسان فينا دمعة ينتظر تحريرها جهراً أو سراً.. في الغرف الأخرى الادميون بلا جوهر

ينامون على اذرعهم بوجوه كأنها فولكلورية ... يستطردون تواجدهم ... ويجرجرون زمانهم الذي انثلم نصفه في ورم صباحي قادهم الى هذا المكان ! وهو يعرج مسند قدميه ليلاحقهم بنظرة خاطفة ... ابتغاء مسراتهم ... وبان لهم انه لديه مصباح من الهواجس كلما استعر ضجره مسح عليه ... وقد اكتشف للتو ان هؤلاء الآدميون ليسوا رجالا وحسب بل تخالطهم وتصاحبهم نساء... ارامل ... مطلقات تقدم بهن العمر ليريمن هنا ... يرمي احداهن بعطف :

– هيا اغسلي جسدك بدموعك ... فهي اصدق انباء من الماء !

امراة تنهرق من صورتها تأوهات ... عيناه الدائرتين الزائغتين تثيران فتن في كل زاوية من زوايا الافق وهو يدرك يقينا انه لو اجتمعت دموع الارامل في ارض بلداً ما لازالت أعتى طاغية في الأرض !!!هم قدوه وهو ينيخ على الخروج ... يزيغوه من الطريق والجو يوزع هوائه ببخل جغرافي ... قدماه تخل بمواعيدها ويحيد عنهم .. وشاء حظه ان كفه اليسرى تعاون اليمنى على حمل اشيائهم التي يرمونها على الأرض ... ومنها ماء حيائهم ...(مجانين تجهلهم المدينة) ذهونهم مترعة مرغوبة بضراوة وهراء ! وسلة غسيل بقت على حالها تطفح بملابسهم المتعفنة الرائحة ! وهو حاسر الرأس من فرط ما يجري ... قلوب حائرة تنفق وصياح قادم (الاخرين لا يهبونك شيء دون مقابل !) يسلخ نفسه من المبنى إلى الشارع وقد رزئته الطرقات فالشمس مريضة متكاسلة القدوم يستطرد ويعود ... وقد دكت في الساحات تماثيل شتى ... فيها من تراب الماضي وبعيون حانقة تلعن العيون التي تناظرها مارة بلا اكتراث... او حتى تفكر بنقدها وذمها ... فخلف كل تمثال ثمة من ارواح تدافع عنها بضراوة! (الإنسان هو من يخلق عالمه) بدت هذه الفكرة تسيطر على تفاصيل تفكيره ... حتى انكسر داخله وانسكب دما لزجا ... ليقبل اليه المساء ساكنا... يحذو حذوهم ... ولكنه هذه المرة جاء عاريا ... لتستقبل ارحام النسوة

سموم اخر الليل ... عجائز كعظام تكومت في الطرقات ... وجوه تنضح حزنا فتنبت سخافة جديدة ... وصوت من زنزانة مجنونة يبتلع سمعه

(النساء تنزف الاجنة في الحروب) وهو يتربص بتلك الحشود الدوائر ويصطاد في ماءهم العكر ... لا جدوى من خيط الجنون لتخرج به إلى العالم الخارج ... يفترس العالم بقدماه ذهابا وايابا ... وقد تفرسه قنوط غريبا ليلتئذ ... كان القمر يغرق بعد ان ترك خيوطه الدموية تسيل لعابها على بقاياهم !!! في القرب من غرفة سكنه التي يغفى فيها كيفما اتفق ... شخوص لم يعودوا لتصفح أرواحهم لكي يزيلوا بيوت العناكب منها والتي عشعشت على فراغ عقولهم ... رشح حواسهم يدوي وهو يقترب ولا يدري متى بدأت علاقته تتوطد بكومات الجنون تلك !!! جمع قواه في فمه ليقذفها مرة واحدة :

– ما الذي حصل لكم ...؟ وما الذي جاء بكم إلى هنا .... لماذا انتم هنا ...؟

تقافزت الاصوات كسيلان ناري من هاته الصورة . وكاد احدهم ان يخرج من ملابسه طالما الاخرين يعتبرون المظهر مقياسا للجنون!!

– الحرب ... إنها الحرب ....!

– الحرب تبتلع كل شيء بلا رحمة !

– النساء ... انهن النساء ... كيدهن عظيم ...

– الخسارة ... خسارة الاملاك ... الوجاهة صعبة جداً لا تحتمل !

– الحب .. إنه يهزأ العقل ويمسخه !

صمت مترسب .. طبقات اصباغ تنثر الجدران وهمس رصين يغمره (كنت ادرك انه سينتهي بي الحال وانا امسك عصاي وهذا افضل بكثير !) سرت تلك الرعشة فيه ... وراودته تهيؤات مجنحة وهو والظلام والجدران يتخاصران ... في انتظار لقادم متشدق... يكشط دموعهم الزنخة ... بعد ان اصطفت قباله في مكان متخم بطيور

تنقر على رؤوسهم مستغلة غياب العقل فيها ...!وهو يرضخ لكل طيف يغتصب نومه فأحلامه من ورق وشموع يذيبها متى شاء.. فهو لا يؤمن ان الاحلام بالمجان... لفائف تريق ظلامه وصخب الموت يصيح فيأتي صداه داخله... يمرر افعالا لتزجية الوقت ... فبذخ الطبيعة اخذ منه مأخذاً وبدء يدحض خطواته ناحرا وقته ... وهو مولول لأولئك الذين ادار رؤوسهم زعيق زوجاتهم ...(الحب – النساء) .

كان مساء طريا ذلك الذي تأهب لمحادثة صاحب الانف المعقوف ... دس قدمه بنعله وهو يتوجه لتلك الغرفة .. بعد ان طفح به الكيل ...

– سيدي هؤلاء ليسوا بمجانين ؟ بل يحتاجون إلى رعاية من لدنكم وحسب؟

وصاحب الاسنان المتنخرة يئن كثكلى وقد غطى راسه بين يديه واجتمع من حوله بعض نفر من المتملقين من الموظفين المقربين منه :

– ما هو مصير المصحة؟

– لماذا؟

– قد تغلق المصحة .... ثم من قدم شكوى من اولئك المعتوهين المجانين ؟ كيف يجيدون الكتابة ؟ من اعطاهم القرطاس والقلم ؟

– سيدي اقسم لك انهم ليسوا مجانين !

– اخرس .. اظنك انت من حرضت المجانين

– انا

– نعم انت يا ابن الكـ....

– اقسم لك لا علم لي بالموضوع .

– ان دائرة الاشراف تمنحنا اسبوعا واحدا فقط . يجب ان اسلمها لمدير اخر واعتبر جميع الموظفين مفصولين من اللحظة ...!

واستمر يولول ويلطم راسه .

– سيدي نبهتك مرارا ولكنك لم تسمع كلامي

– اخرس وابتعد عن وجهي ...

سجف الليل بلع الكلمات الاخيرة .. وبدت المصحة ليلتئذ هادئة .. اذناه تتلقف اصواتهم الشاردة ... وحدهم المجانين مع وقف التنفيذ كانوا فرحين ...! وصائب وجد صباحا مدثر بزاوية في بطانية حتى الضوء في المصحة كان يخشى ذلك صاحب الانف المدقع ... في بلد يسرق حتى ضوء القمر ... كتب على غرفة المدير (مغلق موقت) كان اذعانا بالمغادرة .... ليمضي قدما .... يسير في الشوارع كانه تائه ... وثمة طابور فيه يبقرون النساء بمقابل ... فيجتمعن عليه أجماعا ... مراهقون يتقيئون عمدا حليب الامهات ليستبدلوه بالخمر ... يطرحون سمعة امهاتهم في المزادات العلنية .. تدمغهم اغفاءة متخثرة وسط الازقة ... تشققهم اعتباطاً والهواء يمرغ لحمهم... ورائحة العقاقير تفوح من ابدانهم... يفرغون جيب كل مخبول يحط رحله بمنطقتهم .... ولكن صائبا متوخي الحذر من كل هذه النماذج .... والشارع يبتهج لمساراته ... قدماه يتنافسا مع بعض .. ولم يدرك لتلك اللحظة ما هي الوجهة الأخرى ! فالوحدة حيوان مفترس يقطع الوحيد اربا... خصوصا لو كان يجوب الشوارع حافيا الا من روحه ... بدء انه لا شيء ثمين فيهبه ... قدماه تتسارعان تارة وتهبط وتيرتهن أخرى ... وهو يقذف بقدمه الحصى المتجمع الذي يعترض طريقه والذي بدا لا ينتهي ولا يتلاشى عن عينيه وهو يمد بصره على المدى البعيد منه .. وقد منيت على جميع محاولاته بالخلود إلى قرار حتمي بفشل ذريع ... وفي غضون ذلك وعند راس الطريق الموصل للجانب الاخر ثمة طارئ مريع بذاكرة ممحاة وشعر أشعث يحمل مخروطات ورقية فارغة كذاكرته يريها لكل من يلقاه لينتزع منهم عطفا خاطفا وكانه هارب من عقر المصحة ...! وقد وصلت لديه

الدناءة ذروتها ! بجسد مطواع يهجو نفسه ويشحذ همه وهو مغلول القدمين يحمل بيده الأخرى حفنة رماد ... يصدر سعال متقطع ... يتطلع لصائب بنظرة خاطفة ويقلص خطواته ... وصائب يلتهمه القلق حيال ذلك... فبدء ذلك يحذو حذوه وكأنه مفعم بالضجر يحاول ان يكون بابهى حلة مدهشة ولا يعي انه يحتكر نفسه للإخافة ... ويتسلى بذلك وكان الارجحية له يضايق صائبا وهو يقطن مع ظله اينما دار ... وكان افتقاره للحشمة علامة فارقة لئلا يكرس صائب وقتا بهذا الذي فقد صوابه فاختار مكملا ... بينما بقى ذلك يعرض مخروطاته لمن تبع صائبا مارا سيرا من بعده ...

-٣-

في موقف الباص العام ... حطت قدماه المتعبة ... وجلس على الاريكة المعدة لاستراحة الركاب .. تراجع بساقه ليشيح بنظره ... وقد وقع على علبة مخملية تحملها فتاة بوجه أبيض... ورقي متماهي بالسمرة .. لم يكُ يبان عليها انها من فتيات بائعات الجسد وهز الأرداف والأكتاف ... ولكن إنها امرأة بان عليها قد تزوجت أكثر من مرة سابقاً... رسمت ملامح وهم في كل زوج ... في تعابير وجهها المرتسمة ... في يدها الأخرى كانت تتناول قطع بسكويت ... لترمي بها في فمها ..سامحة لأسنانها أن تقطعها بلا رحمة ... تضع أسورة وسلاسل وعطراً كثيراً .. حتى ضمن مع نفسه أنه قد تكون وضعت عطرا لفمها !!!كثيرون منا يستخدمون العطور ... في هذا الزمن ... ليغطوا على روائحهم ... النتنة !!!ترتدي معطفاً ونظارة سميكة ... عيناه تكاد تقفز لتفتش حقيبتها ... وربما كل ما تملك

فرمته بنظرة مخيفة ... من خلف نظارتها السميكة .. بانت عيناها الواسعتين قليلا..نظراته لها بإمعان جعلها تهرس قطع البسكويت بيدها ... تمنى لو يغرز

انيابه بطراوة لحمها ... نظرات عيونهم تحولت إلى تراشق وسباب ... بلغة العيون ...شدت مقدمة شعرها للخلف .. بينما تطالع الصحيفة المرمية جانبها وفي صفحتها الأولى مانشيت عريض :(وزارة الصحة تطلق مشروع شراء القطط والكلاب السائبة من المواطنين) مع تذيلها بشرط ان لا يكون لهم ولي أمر / أب أو أم أو أخ ... يعيل تلك الحيوانات.أطلق ضحكة خائفة بصوت مرتفع قليلاً لكي تكون فاتحة الباب لمحادثتها . فقال لها بصورة هازئة وهو يضع اصبعه على الخبر .

– كم نحن دولة تحترم الحيوان وتهمل الإنسان ! ! ! ليتني كنت كلباً او قطاَ ...!

اجابتها كانت مكتفية بنظرة رمته بها ولكن مع قليل من تحريك الفم لتكون ابتسامة تليق بالموقف .. وقد حزمت ما عندها في الموقف وهمت بالصعود إلى الباص الذي ارتكن بجانبه المخصص .فعمد إلى قصد نفس الباص حتى لم يعرف إلى اين يتجه ... سوى ان تلك الفتاة اراد ان يكلمها أكثر مما كلمها في الموقف فالوقت لم يسعفه لأكثر...وبعد ذلك استقلت القطار الذي يغادر المدينة لأخرى .... ففعل نفس الشيء... ربما كانت ملاحقته عفوية ... غير مقصوده وبدا أنه يلاحق سراب لا وجود له ... بجنبه جلس رجل يرتدي بذلة انيقة ... لم يمنع ذلك من ايقافهم عند اول سيطرة عسكرية صعد رجال الشرطة يفتشون عن الهاربين والملتوين عن القانون ! ! !اقترب أحدهم من صاحب البذلة الأنيقة وقبل أن يكمل كلمته

– (هويـــ...)

اطلق العنان صاحب البذلة ليده لتلامس وجه الشرطي في صفعة وصل صوتها لآذان كل الركاب حتى تلك الفتاة انتبهت أن الجالس بجنب صاحب البذلة هو نفسه الرجل الفضولي . الذي التقته في موقف السيارات ... المشوار يتطلب الانتظار ساعتين قبل الوصول إلى المكان المقصود و صائب يقلقه شبح استنفاذ النقود فدخلت عليه عدة أفكار لجني الأموال منها ما سمعه من اثنين جالسين خلفه

كانوا قاصدين المستشفى العام لبيع أحد أعضاء جسدهم .أحدهم سيبيع الكلية ... والآخر آذان ... بدأت صفارات القطار تطرق الأسماع ..ولاحت محطة وقوف الركاب لتحط حقائبهم قبل أقدامهم واصلة لما قرر اليهم ...ولكنه لا يمتلك إلا جسده وضميره ... الذي كتم عليه بالسجن المؤبد داخل ذلك الجسد .

الفصل الرابع

-١-

موق عينه وحد لسانه لم يألفهم جسده من قبل ، بصره امتد يقرع الأبواب المختلفة وقد ادنف بالهموم وهو يصارع المارين من حوله ، بنظرات تكاد تكون اشبه بنظرات طفل شوارع متمرد على سيده المخمور واخرون ولدوا قبل اوانهم، الافق لا يشبه بشيء ، السراب قريب من مخيلته على الدوام ، دائرات مغلقة تحوطه من زجاج يؤثر على نفسه أن يرمي الحجر على البحر ، ربما سيعيده هذا إلى زجاج محطم ينهمر من تحت قدمه ..وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته .. ربما لم يدرك جيدا ذلك ..ما هي الا كومة زجاج تتنظر المناورة من حجر يتدفق من صلبه ...ماء مخلوط بأجود السموم ... يعلمه حطام الزجاج عبر البنايات الشامخة ...كالأصنام البشرية والحجرية ... إن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ... وتفاخر بين الناس وتكاثر في الاموال والأولاد ...ثمة قارئون لفنجان الوجه يذرون لبيعٍ ويسعون لاعتماد الأجساد لمطففين ينتشرون في الاسواق كحدة الصوت الباعث في الصم والبكم ...ما أصعب أن يكون المرء جل خصله عائبة ... لدى الآخرين ...

(الآخرون) الذين تهمهم العروسة بثوب شبه عار وألوان شتى تصبغ ما خبئته قبل تلك الليلة الموعودة .... لم تبرد حزازات غيظه الليالي السالفة ...تحت الحفيف الراقص للبحار والاشجار المسعفة ... بما لذ وطاب ... من شيم القرية

فقد اخذته للماض صورة تلك العروسة المارقة ... ولاحت له من موق عينها

دمعة طافرة ... لا يظنها دمعة للفرح خلقت ... رغم هذا لم يعلو كعبه بشيء...

ربما لأنه لم يظهر بشاشة الملق ... للان ... وبساطة وجهه غير الطلعة ...

تسميح دوال الفرح والابتهاج والحزن... لتحيله كتلة مشتعلة ملتاعة ومقرفة ...

أحياناً ... يعض على أناملة وأزف الوقت يكاد يمحي بقية ملامحه الليلية والنهارية ...يغيظ جسده لتستبق قدماه أحدهما الأخرى .... كالماء الصديد .... يستقبل قطع الليل في هزيعها المظلم جداً ... يتناوله كحباية الاسبرين .... ويحتمي بالصحيفة ...من قصف الريح الشرقي الرطب ... يمسح دوال الحروب ... والقلوب اللاهية والنجوى المسرى ... الكلاب السائبة المرقعة تحوم حول قطعة لحم بشرية ... مرمية على احدى الشوارع المهجورة ليلا ... تقطعوا الامر بينهم مقرنين بأصفاد الليل الدامس ....تقشعر جلودهم ويصعقون لمنظر بعض سائل لزج ... ينبعث من انف ذلك الكلب ... الذي يحدق بكومة اللحم البشرية ... ويوثر لو انها سكنت لكي يهجم عليها بأنيابه ليسد الجوع ... الذي جعله سائبا ... طوال النهار ... يغوص امره ... يدرك جيداً ربما يكون هذا الشارع مثواه الاخير .... ويؤمن تماماً انه خلق من سلالة من طين ثم نطفة من قرار مكين فعلقة ومضغة

وبعدها عظاما ... يكسى لحما وخلقا اخر ....وبعد الموت ذلك الذي صاحبه كالصديق الحميم في فترة المقبرة ...لا روان بينهم ... يدرئ عنه الخطر بجلوس وقيام ... ازلف الشارع لقطع لحم أخرى اتت لترتاح بعد ان ارهقها تداولها بين ايدي الحيوانات ...في الغاب ... يحملون مصابيحهم بريبة ... يحلمون ببيض مكنون...وقاصرات الطرف عين ... وانهار من خمر ... يمسهم النزغ وهم يرتشفون ملحاً أجاجاً سايغ شرابه للكادحين ... تنوشهم عشرات عناوين الصحف اليومية إلى تقوسهم على هيئة ما ؟ (زوجة الرئيس تحصل على لقب أغنى امراة تملك مجوهرات على جسدها بطريقة مثلى) (ابنة القائد رغم مراهقتها وجمالها لم تلوث سمعة العائلة في الجامعة) (ابن الملك يحارب تجار المخدرات ويبطل الاتهامات التي وجهت له)!! (المثقفون في نزهة سياحية داخل دجلة والفرات والنيل ... طولا وعرضا)

قد أسرف بالأرق فنأى عنهم قليلاً ... فهم رغم إرهاقهم يزرون السوء بمخيط رجيم. سيماهم في أيديهم وأرجلهم ... تبسل نفسه وهو يحمل إصراً... يقعد مرصد لكتل اللحم البشرية .... فالنوم بالنسبة له أصبح تجارة يخشى كسادها ...ولكن نبض كتلة اللحم تلك المتزايد ثبط عزيمته ... وجعل عليهم دائرة

السوء وراح يسرف بالتحديق ... المكان على عكس بقية الأرض المزخرفة

المزينة بشتى انواع الماكياجات ...كبيرهم امرهم ان لن يلبثوا الا ساعة والا لن يبؤهم مبوء صدق في فجرهم التالي .... يكدحون في الغداوة والعشي ... ماءهم يغيض فيضا ليبلل ملابسهم ... الرثة ... لا يعتبرون تلك مشكلة البتة .. تعودوا ذلك منذ سنون ولادتهم ... يوقن أن هناك ختماً على قلوبهم ... وأسماعهم .. وإذا خلو إلى غرفهم ... مفتوحة الجدران والسقوف .... يعمهون كيف يطبعون شفاههم على اسفلت الشوارع ... يشترون الضلالة والعمى .. ويظنون انها تجارة لن تبور ابدا يستوقدون نارا لشواء قطع لحم زائدة منهم ... رغم قيظ الحر اللاهب وتداعياته يتخذ معهم الأرض فراشا والسماء بناءاً... يسومونه سوء العذاب بنظراتهم الغرائبية ... اشربوه في قلوبهم مما جعله يسفه نفسه طوعا ... لم يتسنه شرهم للحظة ... المسكنة التي ضربت عليهم جداراً حائلاً بينهما ... صار غور يجثو على تلابيبهم ... يتربصون الشواء منذ قروء مضت .. وقد استزلهم الشيطان

وهم يطبعون شفاههم المتكسرة ... يأكلون إسرافاً وبداراً... كبيرهم يتلاين بلسانه يدرك تماما ان ليس ملابسه المبتلة ... تحتاج إلى تغير بل حتى جلده... يثقفون الشقاق بينهم مترات بمياه اسنة ... فليس عليه جناح .. بما هوى ... والا لكان ساء سبيلا وذاق ويلهم.كبيرهم غليظ القلب يختان نفسه مع زلة الشيطان ومع كتلة لحمه المتوزعة هنا وهناك المذبذبين رؤوسهم لا إلى هذا ولا إلى ذلك ... وقد بان الخيط الابيض من الخيط الاسود على اصوات السيارات .. لتفزع كتل اللحم تلك ..

كانت عناوين تتطاير مع اوراق الصحف الهاربة من غطاء تلك الكتل اللحمية ... التي تحتمي بالليل مع نهش الانياب الحادة للكلاب السائبة التي صيروها بأمر الرئيس حراس ليليون يراقبون كومات اللحم الخارجة عن احضان الزوجات والبيوت ... الهواء المتكور يعانق المنفى وسط انفلات بقع ضوء على اديم الأرض .... لم ولن يضحك بعد الان؛ فحينما يولد طفلا في مقبرة من قبل قابلة غير مأذونة وبمعية دفان الاموات يسخن ماءها ... ماذا تتوقع غير هذا المطاف... الحياة هي اكبر مسرح .. وجد في هذا الكوكب يتبادل ادوار العرض ممثلون من اجناس شتى ....(منافقون .... كاذبون ... مومس .... ساسة ... مستضعفون ...)تنطبع عليه اثار سنة كبيسة وهو مبلول بفزع بليد .. فهو لم يندم على ماضٍ فات ...تزوره تأوهات مختلفة تقتل البحث عن مجد تليد في داخله ... السيارات تذرع الشارع ذهابا وغيابا والصباح يتنفس بخجل ... رغم حركة المارة المنفعلة ... والضوء الساطع يحجب الرؤية عن ذلك البهلواني الذي يمتشق مزمارة ليثير انتباه الآخرين ...البسملة والحوقلة الصباحية تأذن بفتح أبواب المحال ... الطنين يهاتف أذنه المتسخة.. قرقرة معدته تهمس له على استحياء ... مسح دمعة مكابرة انفلتت منه عنوة ...تشرئب بعنقه إلى الامام ولم يعرف لحياته اكسيراً لحظتذاك ... تنبعث من فمه رائحة كرخام القطارات ... وتنهار ملامحه وهو يتقرفص القدمين أمام تلك العجوز بائعة الشاي... ليرتشف على عجالة قدحاً من شايها بنكهة الماض...وبصق السؤر في محفظته .... المصابيح القرمزية الساهرة التي ارقبت الشارع ليلتئذ بدأت تأكل نفسها ... والجدران الملونة بدأت تتفتح .. من الباب الرئيسي لدائرة الاقسام الداخلية للبنات تسرب نور خافت ... بحذاء شبه رث وخطوات وئيده بثوب اسود وربطة راس مرمية على راسها كيفما اتفق في مكان عملها ...وقد بانت

خصلات شعرها الامامية ... تتعثر بأنفاسها ... وقد بان عليها على غير طلعتها الأولى في مرمى بصره ... حينما التقاها في موقف

السيارات ... كأنها اليوم طفلة مفرطة بالدلال من طريقة مشيها... بدأت الساعة وقورة والأجراس خرساء ... والساحات فارغة ... لا يحدق في شيء إلا إلى خطواتها التي تقطعها على مساحات الأرض... بدء يشك ان قلبه للان قابع في اليسار وانه لم يرتمي مع عقله في حقيبتها الوردية التي تحملها على كتفها بغنج وبين فترة وأخرى ترفعها لتكون تماما على مقدمة كتفها ... اصطكاك الدراهم

وصيحات الباعة لم تحجب حاسة النظر لديهم ... وهما يطلان على يافطات المحال المجاورة ... خطواته نحوها ترسم لزمن اتٍ... ترتعد فرائصه وتصطك اسنانه .وانفاسه التي يطلقها غير صحية ... فهي مملؤة هماً.... تكاد تكون غازات مسمومة ستجعل الآخرين في حالة غيبوبة في حال استمرارها ... يقترب أكثر وساحة الكلمات تتساقط لديه والجو اللاهب تنكسر حدته ... بات كانه معطل الحواس ... ما خلا حاسة النظر ... ارنبة انفه تمر عليها رائحة سنين عمره ..فيتفحصها بعمق ... وحينما اقترب وجهه ليلامس راسها ... من الخلف

بدء انها تبحث عن فرشاة رسم وفريمات وبعض الالوان الزيتية ...

وحينما جهزت متاعها ... تقابلت حواسهما معا ولم ينبسوا بكلمة ...

عيونها زجرته... اصابعه ترتجف فيبحث عنها في وجهها ... صوت الجرافات وهي تريد ان تدك الاديم تكاد تفسد ... بعض حواسه ... الاتصالية ...

النظرات تتبارى بصدق منقطع النظير ... وساطور الجزار يقطع لحم الظان

ويعلق الراس منفصل عن بقية الجسد ... ويعلم صبيه ذو الاظافر

المتسخة هذا المشهد وكيفية العمل عليه ... واخيرا اطلقتها بمرمى وجهه....

– انت ؟؟! !

لماذا تلاحقني كظلي ..؟

بدا أنه قد رآها للتو ... تعوّد أن ينسى الأمس بحلوه ومره... تغورقت عيناه بضحكة بلورية :

– نعم أنا ... ولماذا تسألين ؟

بدأت تفور داخل جسدها وهو يحاول ان يبحث عن كلمة لتفتتح شفرة دافنشي بيسر ... جانبها الجسد وقال لها بصوت منخفض...

– انا احب اللون الاحمر الذي اشتريته لأنه يذكرني بالدم الذي ينبض في عروقنا!

رمته بنظرة شزراء اطفأت ابتسامته سريعا ليعود إلى قاموس كلماته

يبحث عن كلمة أكثر اتكيت ودبلوماسية ...في جانب السوق ... ضوء قطرات الماء من خلف الزجاجة يلمع والطاهية منهمكة بطبخ فطيرة مقلية ... بزيت مختلط بعرق جبينها ... اضلاعها تفور ووجهه تتغير ملامحه كل لحظة

وهما يسيران مع بعض بدون اذونات وبدت هي منشغلة بالنظر لحاجيات الرسم دون الاكتراث لتواجده ... ومحلات البخور تضوع منها رائحة الجدات ... بعد صمت دام دقائق وهما يتجولان بدون اذونات وهو يتذرع الحيل الحركية للاستمرار... وبوقاحة فجة أطلقت العنان للسانها :

– طيب... من أنت ؟

بدأ مرتبكاً معقود اللسان لا يعرف من هو المسؤول عن خاصية الكلام....

لسانه أم فمه أو يده ... أو أنفه... أو أذنه... تلخبطت أوراقه واختلطت أفكاره قبل أن يستجمعها...واستجمع معها قواه مركز ملياَ...

– أنا .. أنا من هذه الأرض ....

رمقته بنظرة غيظ ثانية :

– أعرف ولكن من أي مدينة أنت ؟

ود لو يقطع لسانها لحظتذاك وربما لان سؤالها صعب عليه أو إنه فقد الذاكرة ...
في بيت البنات ام المقبرة او ليالي الشارع البائسة مع جوقة المشردين ...
وأجابها برباطة جاش غير آبه لما سيؤول جوابها :
– أنا من هذه الأرض ... ولي في كل بقعة منها مولد ..!
واصل كلامه .. وانتشى بابتسامة رسمت على وجهها ليستمر مشوار التحاف الأرض مشيا على اقدامهم ... وبعد ان اتمت الحصول على ادواتها ....عادت إلى مكانها في بناية القسم الداخلي .....وقد اوصلها بنفسه قدماه اللواتي ذرعا كل الشوارع ... الخائنة والعاهرة ... والموت والحياة ..صار شيئان بالنسبة له بعد ان كانا سيان... وصوته المتسربل بدء ينحاز إلى المنطق ... ليقصد مقهى يؤوي كومات لحم بشرية بمقابل .... بعد ان قال لها بانه يود زيارتها والتعرف على مكان عملها واصطحابها للسوق في يومهم التالي بعد ان اقنعها انه يحب الرسم ويود ان يرى أكثر ....وهو اخذ يرتمي على الارائك البالية خلف الجدار المائل .. ودموعه تتغرغر في زاويتي عينيه ... في الخارج القطط تموء بحنان ورائحة العتق تفوح من الازقة الخالية المجاورة وأمسى يرى الأوهام تنثال أمامه ... كأنه نادٍ وسط جدران ضامزة ... صلصلت شفتاه من الدمدمة واصبحت صديان ... وبدء كالمائر وسط جدران صامتة ... لا تقبل حتى إعطاء صدى لصوته ... نضيض وفره كأن أصابه الشجا ... فقد نجز وسط خشونة المهاد .. والغمرات ... الجدران تأن من الصدا وقد سامت تسلط الأوباش على ظهورها ... لون المساء بدء يسرق أحلامه وغل الظلام يعرضه لشهقات الاحتضار وكان حركة النجوم قد حكمت عليه بالموت الموقن لشدة تدوارها في راسه ...ليستحوذ الليل على ماضيه فيقطعه اربا اربا ... صليل المواعين ورائحة الهيل تأذن بفجر جديد ... يصدح بتكبيرات المساجد ... ولأنه دائما يقول

مع نفسه أن برجه(الكلب السائب) جعله دائماً سائباً وأن فصيلة دمه الـ (C4) تدعه دائماً عبوساً يود أن يبصق في كل من يواجهه في الصباح ..

ارتشف قدح شاي مغموس بالهيل ... وغادر يجر قدميه واحدة

تلو الأخرى ... رائحة العتق تفوح من الأزقة ... الخالية ... من البناء الفاره ..! القارب المجداف رث وممزق ولا يقوى على السير طويلاً... العصافير على الشجر تصدر ذروقها وزقزقتها على المارة ... فكان نصيبه ذروق الافتتاح ... التي جعلته يبتسم فقد سمع من الجدات ... انها مصدر خير ... في شارع البغاء الذي ابتلعه بلا مقدمات ثمة متسولات يعشن على اجساد غيرهن ... مزاريب بيوتهم تنشج ... وإحدى المتسولات التحفت الأرض ... يديها ممرغة بالرصاص وفم وليدها صار يرتضع البارود من صدر امه ... الظلام ينشر غلاليه على منازلهن رغم ضوء النهار ... نوافذهم متأكلة ممزقة الزجاج ... ابوابهم موصدة ونوافذهم مشرعة للكل ... حتى لفاقدي الهويات !!! الملل والمال يزحف عليهم وثمة رجل فارع الطول متصلب الرقبة بشوارب كثة عيناه تقذف شراً يقود الزبائن لقطع اللحم الطازجة ... فهو المسؤول عن التفريق بين الطازج والفاسد في هذا الحي (ويشبه كثيراً في هذا العصر من يضعهم الاطباء لتلقف زبائنهم من الشارع) فالاثنان معا يمارسون التجارة بالأجساد .... وقد امتاز مكانه بالغرابة وكانه في الديماس فكل ما حوله شوهاء...وثمة متسكعين في الطرقات يستقلون الصباح ليطفئوا سكائرهم في صدر الحائط الذي يخبئ فضائح الآخرين ... فيرمونه بزجاج البيرة الفارغة .... والأكمام مضمحلة والقطيعة مفروغ منها ... كل الاثواب والبذلات هناك مستعارة ... حتى الشعور...المنقيات تكاد تسحب الأرحام لتقذف بها في بالوعات المياه الاسنة ... التي تنتشر على امتداد الزقاق .. ثمة فتاة بطنها متقدمة قليلا عن جسمها ... تلامس يدها كالمتسولة اقدام المارة فيبدوا من المنظر انها تعمل فريدة ....الإسفلت

فائر والبيوت مدنسة كذا وكل ما في الحي فائر...وواثب ومثبت في المقدمة بثقوب وندب ورقاب العشاق مع مؤخرتهم تتطاير في الشارع المجاور حيث يتعانقون بتلصص وبلا رخص صحية ... وبعيداً عن أعين القانون والمجتمع !!!!

-٢-

يفر بجلده ليقصد الجانب الشرقي من المدينة .. فما زالت قدماه سالمة سيدوس فيها كل بقعة من هذا البلد ... فلكل امرئٍ ثمة مكان يقصده وقت الضيق ... حتى وإن كل يجهل مفاتنه ... وقد طفحت نفسه ليجتلب محبة الآخرين ... دونما جدوى ! تقلصت أطرافه في الطريق المضبب ...!! ولزوجة الطين تكاد تنتزع حذائه الرث من قدمه ... شواظ مجهولة تغسل مقدمة وجهه .. وقد أزمع على الإكمال ... يتحرى بؤس الآخرين وما يتحيفهم ... مفازات الزمان تقلب ماضيه الخاوي لتختلط مع براميل طافحة من القمامة .. ولحظتذاك كأن عظامه نفرت من جسده وهو يغير من حركته .. كادت الروائح ان تشطر رأسه إلى نصفين وقدماه بدءا لا يقويان على حمل كافة جسده ... وبؤسه وفراغه يسدان عين النهار ... خمسة وأربعون دقيقة قطعها راجلا خالي الوفاق الا من قدماه (يا لقصر هذه الدنيا وصغر حجمها) قالها بصوت ممدود وهو يقرأ عنوان مقالة على صحيفة يومية ذيلت باسم وعنوان مدرسة (أمل عبد الواحد – ثانوية الأيام) . هل يعقل أنها أمل عبد الواحد التي تهوى الشعر والكتابة رفيقة الجامعة طيلة الأربع أعوام .. تلك التي كانت الوحيدة التي تفهم بؤسه والتي ابتلعها الزمان بغتة بعد امتحانات السنة الرابعة ... هل يكون وجودها كذبة سمجة ؟ ! وبدا يتساءل ؟ . أهرق نظرة متموجة وسرت إلى جسمه قشعريرة .. فهو لم يجشم نفسه عناء الرد على مراسلتها اليتيمة قبل سنون..! من هنا وهناك ... أسماء تقفز من افواه الناس .. وشباب ساقتهم الظروف لصحبة بعض

.. وشحذه لذاكرته كاد يشطب ملامحه .. ركبتاه تصطك احدهما بالأخرى لينبثق منها حله وترحاله ... وبدا وهو يشاغل نفسه بالسير قدما ويمط جسده فيكاد يغلبه بريق يذيب غمرته الموقتة ! سيارات تطير فوق الشوارع .. انوف تعودت شم رائحة الحروب وأطفال من هذا الزمان معداتهم مملوءة ديدان يقفون طوابير منخرطة على الصيدليات التي تفترش الأرصفة ... ورجال يقاتلون بأظافرهم وأسنانهم من أجل لقمة عيش ! وقلوب فطمت عن العاطفة وصبية يمرغون أنوفهم في التراب خشية الحسد ! ولون الصباح يكتسي سفاسف وطلاسم هذا الجانب ..! الذي بدا يتماهى مع مكانيته . يترامى تحته ضوء الشمس وهو يمشط الشارع بأصابعه .. دكاكين احتشدت في عينه .. اصوات

تغازل طبلة أذنه لتضج في رأسه الأسئلة فيمد مخالبه ويخفف غلوائه ..ضفادع تعزف بنقيقها لحن الوداع المستوحى من التراث (يا للبؤس ضفادع عند النهار)

وقف إزاء شخص مفتول العضلات يضع وشماً لخارطة البلاد على ساعده الأيسر الذي كشفه للعيان . وقد أحاطه جمهور غفير من الناس ... وهو ينظر لهم بنظرة محتقنة وفم مزموم ليعرض قوة ساعداه لضعفهم المخبأ تحت سراويلهم ... ففي مدن كاملة وبيوت متأنقة ثمة رجال يجعلون النساء قيمات عليهم فيفقدون كل قيمة للحياة وآخرون يدأبون على ذلك ..! ومن الجمهور رجال وهبوا سمعهم فما من شيء يستحق ان نتكلم عنه في هذا العالم حسب اعتقاداتهم المختلفة ! حاس في داخله خبث لئيم وهو يطرق نظره عائمة على عضلات الرجل المفتولة .. وفي مؤخرة التجمهر ثمة رجل خمسيني كأنه مولود بحبة فياغرا ... بدء ينفتح قفص صدره لتهرب محتوياته إلى الفضاء الخارجي ! لعله كان يطلب معونة .. فتجاهلوه جميعا وقد انبعجت جوانبه في زحامهم وصائب شرع يطلق ابتسامة خفيفة محمصة .. ليتكلم جمل مسروقة انزلقت من لسنه ليجمع شتاته الأحرف :

– كل شخص يموت بساعته !

فينزع الجميع ساعاتهم ويسحقونها بأقدامهم التي بدت تضرب بقوة على الأرقام الذهبية ! وشرع ذلك الذي كأنه مولود بحبة فياغرا ينفذ بجلده أعتى الهجمات الشرسة عن طريق أنامله الخشب المسندة ...! وصائب يفتح عقله على مصراعيه لاحتضان الصورة وصاحب العضلات المفتولة كلماته تقطر استحقار ! والجمهور مشغولون بتركيب وانتزاع الابتسامة بين فينة وأخرى! (يا لهذا العالم الذي يدار بآلاف الوجوه !) .وقسمات وجهه وغصة صوته تبعد رسخ الضباب وهو يناور الضفة الأخرى بعيناه وقد أطبق أسنانه شادهاً بالعنوان في الصحيفة إلي يتأبطها.. وفي رأسه تتدفق ألاف الصور ... تطرطر بأذنه وهو يدرب لسانه عن ماذا سيقول ؟ ! أمهات يتوزع لحمهن وأطفالهن يلتذون لحليب صدورهن !ونساء تؤكل نواتهن ويرمين قشوراً ! وهو يدرك أن اجتماع نسوة كهذا ينجم عن هتك كل مستور وتناول ما رأته عيناهن وسمعته أذانهن لمدة شهر للخلف وأخر للأمام !

وأطفال يقفون صفا جراء جفاف صدور المرضعات ..! والذي حرم من طعم النساء استبدلهن بزجاجة عطر يمارس طقوسه معها بلا ريبة ...استبطأه المنظر قليلاً ... وقد استجار ولم يعد يفرزن نظره وكلامه ... معاصم مرمية على الأرض وهي مقيدة في الأغلال تدوسها السنابل ... ووفق سلطة العقل الجمعي هذا لا يعني شيء للآخرين!وهم منزوين كلاً لحاله ... يهاذي ظله وتراوده أعنة الأفكار والهواء يلحس الإسفلت فيترك ندبا مزدحمة ! وقد ناداه جلجلة صوت من تلك الحيطان الغارقة بقطع القماش الأسود ليصفد عرق

جبينه وقد فتح عيناه لأقصاها :

– نطالب بمماحي لمحو ذاكرتنا ... كالتي سحقت ومحت السبورات وأطفالنا ... في المدارس!

يضطلع بزيارة ذاكرته ليقتني حاجياته (عالم خالي من البؤس ... عالم أسود) !
وعلى شاكلة الموت كانوا يسيرون .. يتلعثمون ... يخمدون غضبهم .. يسعون في مناكب الحياة ..يحثون الخطى ... ولكن .... لا جدوى من صوت لا يعيد الصدى ..!وصاحب العضلات المفتولة لا يفطن لما يفعله وقد تعاضدت قواه مع هواجس وآلام الآخرين الذين يدونون تاريخ يومياتهم في حضرة العضلات المفتولة .. وصائب توجس خيفةٍ من زمجرة صوته فهو لا يحبذ من ينظر إليه بغرائبية ويود أن تكون نظرات الآخرين .. إعجاب وفقط ! وتلك الهياكل البشرية غيبت شيخوختهم سني شبابهم لتحتضن وسائدهم الملساء وجوههم التي أخشنها الزمن .. وصاحب العضلات المفتولة صفع اثنين احتكموا .. فعلها دون أن يطرف له جفن!
وتناولهم بذراعه إلى خارج التجمهر ... كانوا رجلاً وامرأة اختلفوا في أسرّة مشتركة تتسع لجسدين ... تركت فارغة .. وباتت جلودهم مكشوفة لتقلبات الطقس والرؤوس التي لم تغسلها السماء منذ قرون ... وصائب غائص في قوقعته يطرح أفكاراً ويريقها .. وقد تريث قليلا ليمرر خيوط الحياة وقبل ان يقول شيء ابتلع ريقه وهو يدخر بعضا من تحمله ... وعيناه تجوسان البنايات الشاخصة يبحث عن ترياقاً لألمه ، وقد هرعت قدماه احدهما تتبع الأخرى بغباء وبات البلد ضيقاً بوجهه!
وغواشي الزمن تشكل ضبابية امام شبكات العيون المتكحلة والتي تنتقي الكلمات بحذر! وقد وسع من خطواته المرتبكة .. وشرع بالمغادرة وبدت اقدامه تخلق لنفسه فواصل لتمزقها العيون ... تحت فيء شجرة يوكالبتوس منفردة ..!.
شوارع تقذف الأجساد التي ابتلعتها صباحا ... رجال باعوا الخجل منذ مراهقتهم .. يطلقون كلمات تتقطع عبر الأثير ... وهو يحدوه الأمل ان يكون العنوان صحيحا ... وقد قابله صفين من الأجساد المقعية ... ازواج شفاههم البليدة أودت بهم إلى

هنا ... يستدرج ذاكرته ... وتزحف ذيول ذكرياته .. والمنغصات تتقصاه .. ونباح الكلاب يجعل الأنوار صامتة .. اصوات تمزق سكون الفضاء الهادئ ... دارت به الطرقات وهو ينهم بالنظر لوجهها من خلال التدرج إلى مساحة الذاكرة ... سيره لا ينقضي .. قدماه تنحاز لتحمل جسده ... ملما بالحدقات ... التي أوصلته إلى واجهة المدرسة ... حيث المراهقات يقيمن مزايدات في الجمال والغنج وإظهار المفاتن ! لكسب ود جوقة المراهقين الذين يفترشون زوايا الأفرع التي تؤدي لتلك المدرسة! في غرفة الإدارة المنعزلة عن صفوف المدرسة .. كانت المديرة مشحونة بصاعقة غضب وهي تزمجر بوجه مراهقة أسرفت في وضع ملمعات لتخفي خطوط التجاعيد التي تشوه وجوه الجميلات حتماً.

يتقيأ كلامه بعسر :

– هل ست أمل عبد الواحد ... موجودة؟

– ومن أنت ؟

– زميل قديم .

– ستنهي درسها وتأتي بعد عشر دقائق .

مرت تلك الدقائق العشر ثقيلة مع هذه المديرة البدينة بنظارتها الطبية وبدت عيناه توضح أنه لم يأخذ كفايته من النوم قبل ليلة . وهو يتطلع لتلك النافذة الموصدة .. ليقعده صوت كأنه حينها صحا من نومه وهو لم ينم . نوما يقرح المقل !

– صباح الخير ست . هل طلبتني ؟

أشارت بطرف إصبعها وعينها مشغولة بترتيب أوراق ما .. ويصوت رخيم :

– لديك ضيف.

شاهدا بعض وكانت روحيهما لحظتذاك مقبلة ان تخر صعقا ... لحظات لم ينبسا ببنت شفه .. وفد تفتت دموع كامنة في قرارة البؤس والأسف المطول الذي أطلقته

العيون ... وقد لاحت في عينيه الحلقة الذهبية في إصبعها الناعم ... تزوجت رجلا بعمر والدها يبدل النساء كما يبدل القمصان! وقد نبت في رأس صائب أن يخيم على هامتها بكلتا راحتيه ... ولكن ... لا جدوى لاستباق الزمن!تحوم نظره على كامل جسدها وكأنه يراها بذاك الزي الذي ترتديه قبل أعوام .. طالبة في كلية الآداب .. سحبته بإيماءة مقتضبة إلى الممر الخارجي هربا من عيون المديرة الفضولية .. ليناقشا إطراف مواضيع سالفة ورؤوس أقلام مستهلكة ماتت مع الزمن المغادر..هو أراد القاء التحية والاستذكار فقط ...(يا لهذه الدنيا الصغيرة التي تتلاقى فيها كل الوجوه .. كل الوجوه تماما ... لا يضيع منها ولا ينقص أحدا) .لملمت أيامها وحقائبها لتغادر بلا رجعة وضعت نفسها في سيارة ذات موديل حديثة لتطير بها إلى حيث البذخ ... والضجر.. وقد تحين فرصته للعودة من حيث جاء .. فلكل منا ثمة مكان يقصده اذا ضاقت الأمكنة الأخرى على حمله ..! قبل أن يتحول الظلام عباءة يلف المدينة .

الفصل الخامس

أثناء المرور لا بد من النظر وأثناء النظر لابد من التفكر وأثناء التفكر لابد من الاستنتاج...ما زلت كومبارساً لدور لا كلام لك فيه فتدلوه... ولا نصاً فتقرأه ... ولا رأي فتمنحه ... ولا فسحة فتنالها .. يعبث بك عواء الهواء كيفما شاء ومتى... داخل رأسه المتشعب تتصارع الصور العفنة ...والصالحة للتفكير ... وغيرها ... يلفظه الشارع إلى خارجه ،كان خارجه مرجا يفصل عن داخله ربما يشبه بتكوينه ذلك الكائن البشري الذي نصفه أسود والآخر أبيض

يظهر ما جمل لديه للناس ويخبئ الجزء الآخر ...المارة وجوههم متلونة بأزرار بيضاء وسوداء وعيون خضراء وصفراء حتى يكاد لا يميز توقف ومرور الإشارات .... ويح إنسان لا يسير إلا بالإشارات ...قطيع غنم متسرب من تحت محرك السيارة التي قطعت سلسلة أفكاره وهو يمر في منتصف الشارع وقد تركت خلفها جوقة من الحصى الاسود الذي يشبه حبات العنب والمسابح ... يتغرغر بماء ملوث انتقاه من طفل في آخر التقاطع يبيع الماء الملوث حصراً للغرباء ... والملوثين ... أمثاله ..لأن معدته لم تتعود ان ترتشف ما هو نظيف وصافي ... على امتداد عمره المتسخ بالمواقف العفنة ... اجتاز ما يجب أن بجتازه قبل أن يصل لتلك البناية التي تدير ظهرها بجبال من الرمل ... وقبل أن يوازي وجهه بالبوابة العامة بدأ يفقد عقائل الكلام وحالته مسفرة ... حتى انه لم يعرف اسمها ليسال الحارس عنها ... بدا من طريقة جلوسه على الرصيف أن النوازل قد حلت به .. وفقد الضلاعة والرياش العطر لا أحد يذكر يزدلف منه وهو بهذه الحالة .سيكارته تبحث عن شفاه عذراء لتلامسها ... عقارب الساعة تشير إلى إيذان بخروج النسوة في الحي للتسوق ... ومن يرقبها .. تغط في غيبة ربما لاشاها الليل أو ضوء القمر لتتبخر مع أضواء نهار

المدينة ... تنهض متثاقلة من سريرها البرونزي على صوت جوقة العصافير المهللة ... ودودة الجوع بدأت تنهش معدتها.. وهي

تتعثر بقدميها ... الناعمتين بإحدى لوحاتها ... تنقلب اللوحة على وجهها وقد رمت السقف ببقعة لون حمراء ... صنبور الماء تعود أن يلامس يديها كل يوم مع كاسها المخصص .. وهو بالخارج تراوده أفكار شتى وتتلاطم داخل رأسه

(هل ارتكبت الخطل ؟؟)

شدة الرياح المرتفعة قليلا تأتي بصحيفة لتركع تحت حذائه الرث ... ربما لأول مرة في حياته يركع له شيء يحتسب في هذا العالم ... قرء مانشيت عريض :

(وظيفة القرن الواحد والعشرين كيف تستهوي قلوب النساء !)

مزق أجزاء الصحيفة ورماها في سلة النفايات وعاد يتأكد من استقرارها التام..

رائحة اللحم المشوي بدأت تتسلل إلى أرنبة أنفه والأطفال منذ الصغر

ينتظرون اللحم المشوي ليأكلوه ... تحمل حقيبتها اليدوية ولوحة الموناليزا بصنع فرشاتها ...قابلته بعد أن اجتازت الحارس والباب معاً... هذه المرة أطلقت له عبارة الصباح الروتينية :

– صباح الخير

أجابها بتوتر وارتباك ما ذنبه يحب الحنين في عالمه ولا يجد إلا السراب دوماَ...

الغريبة أسمعته عبارتها الأخرى هذا الصباح في ظل رقابة صارمة من الشمس النحاسية .

– صباح النور ...

كررت وربما توكيدا للقادم ... مع ابتسامة انثوية كابتسامة الموناليزا . لتسمعه ثالثة :

– هل ستذهب للسوق الكبير اليوم .

أجابها بارتباك مسيطر وخجل ووهن .

– أكيد سنرى السوق بالمعية .

تضاريس وجهه بدأت مختلفة وهو يسير بجنب امراة ... أصحاب شيبة في أفرع رؤوسهم قد مات الزمان ، يتأملون من شرف شققهم دبيب الأحذية ... جرو يجر امراة من ثديها ورحمها في وجهها ... عمال النظافة انشغلوا في تنظيف الشوارع ونسوا تنظيف أنفسهم من أوساخ طالت حتى آذانهم وكادت أن تحولها إلى طرش دائمي ... شعرهم ووجههم متشابهان...الشجرات الملعونات قرب الاخاديد تغوي النساء ... وطفلا ملهاته رصاصة يثغو لصلابتها ... وحقل الأفيون يوزع مجانا لكل من هب ودب ... ومقبرة صغيرة للأطفال بجانب نهر قصير ... السرفات تملئ القبور اللازوردية ... وثمة عجوز في نهاية الرواق تقطع شعر الفتيات الموتى لتصنع بذلك شعراً مستعاراً ... يغطي صلع العذراوات.... وجثث تتفسخ بين ايدي القابلة المأذونة والدفان... وهم يشتركان في تجارة الجسد...دوريات البحرية يبحثون عن سمك خارج عن القانون وهارب من قبضة العدالة ...وثمة مراهق يعزف على النأي بتشهي ... في شارع البنات ... حيث الملابس الداخلية تزين المنظر بدون خجل ... كان مرورهم بطيء وسط زحمة النساء ومضايقة المتسكعين

لهن .! وكأن الأرض قد لفظت كل الشابات الجميلات ورمت بهن في هذا الشارع وثمة خطيبان منافقان يتبادلان الغزل هربا من سمع أمها .... وغلاظة والدها ...وهم يدركان ان أكثر مرحلة نفاقا يباع فيها المدح جزافا هي مرحلة الخطوبة ...

في السوق حيث روائح البهارات والهيل ... والشواء اللذيذ الشهي ... كان السياب يحمل ازهار ذابلة يتزاحم مع المارة ليشتري فاكهة منتهية الصلاحية (باذنجان ... بطاطا ... الطماطم...)وكانت نازك الملائكة تحمل اكياس الفواكه... والجواهري أخذ على عاتقه يفاوض البائع ....للتقليل من السعر وفيه من حنين دجلة الخير التي يعتقدها ما يصبو لتخطيطه فعند كل بائع كان يطلق زفرات الحنين إلى دجلة .... وشاركهم التسوق الفراهيدي والجاحظ بجحوظ عينيه... وابن سينا ... وموزارت... وبيتهوفن وهم يعزفون أجمل السيمفونيات ... ورينوار بحمل لوحاته العارية ... التي جعلت المراهقين يتجمعون حوله وسط السوق كذباب ينهش قطعة حلوة ... السياب كان يجاذب الفتيات الغزل وهن يستمعن لقصائده عن الحبيبات فيزداد غنجهن ودلعهن وترامي ارقام هواتفهن ... وهو يتجاهل بعضهن في البحث عن ابنة الجلبي بينهن ... يقاطعه نيرون وكاليغولا وهتلر ونابليون الذين يتحكمون بمقدرات السوق البشرية والمادية اما غرامشي وتولستوي ودوستوفسكي وتشيخوف وموباسان فاكتفوا بتشكيل عصابة الحزب الابيض لجبي الاتاوات الاسبوعية ... عند نهاية السوق هناك شكسبير يرتب رصيفا متشقق لعرضا من اجل زبائنه المتخمين ... وعلى الجانب الاخر كان افلاطون بقبعته الخضراء التي يعتمرها لكي يقي راسه المملوءة فلسفه ومثالية من قيظ الحر ... وقميصه الأبيض المثالي ... وارسطو ببنطاله المشجر وسقراط بسيكارته التي رماها خلف اذنه التي علق بها جهاز الانصات عن بعد ... وهم يفترشون الرصيف ... يبيعون روايات نجيب محفوظ وكتب العقاد ... انفردت عنهم بقليل فيروز وهي توزع أقراص أغاني أم كلثوم مع قطعة منديل مزيفة ... ربما تعمل دعاية لحزب نسوي قادم !!!حمورابي كان يضع اثار بابلية وسومرية واكدية واشورية منتزعة من المتاحف الحضارية .. لتباع مع شموع أعياد الميلاد ... وفي مقدمة التقاطع المار إلى السوق

توسط جوقة المتسولين غاندي بفردة حذاء واحدة !!!! ورزمة شعارات !!! يمد يده للصالح والطالح ... قيل من أجل غاية سامية ؟؟؟انشتاين بنظارته الطبيبة كان يبيع صور شارون ستون الفاضحة ربما ليس لأجل سواد عيونها بل ليمرر نظرياته الفيزيائية التي يهديها مع كل صورة ... وكان أكثر زبائنه من المسنين بعمر الصبا ....!!! جانبه البسطة ليونارد دافنشي وبيكاسو وهم يرسمون من يجي ويذهب مقابل وجبة فطور سريعة ودسمة ... بعد أن تملكهم الفقر المدقع وطردهم مالك بيت الآجار حيث يسكنون في الشقق التي يصعب وصول الماء اليها ... وحيدر الأسدي كان يجلس في صومعته بسقوفها البالية وجدرانها المتهرئة مع الاوراق العابثة بالمكان الصغير جداً... والذي صفعه الزمان بكل ما تعني الكلمة ... كان جالسا غير ابه لضجيج الخارج وفوضى الداخل .. وهو منهمك في كتابة رواية (الكومبارس) بقرطاس وقلم بسعر سندويش (الطعمية المصرية) التي يفضلها على اللحم !!! وقد ترك على اسفل باب الغرفة عبارة خطت على ورقة اي فور لكافكا (ان نكتب يعني ان نهجر معسكر القتلة) !!!!.

سحبا جسديهما من ضجيج المكان ... مع تطاير آخر عبارات العهر ... وهي تطرق أسماعهم (الوقح ... ابن القحباء) . لذة المنظر لديه تجعلها قرت عين ... متضعضعة ... يرمها بنظرات عفوية ..فيعود اليه بصره خاسئا وهو حسير ... دعته إلى كافتيريا منعزلة لتغمره بفرح لم يألفه .... يسرح ببصره إلى الطاولات الفارغة من طاولته التي استلقى عليها ... وارتسمت على مساحة وجهه ابتسامة متخفية وهم يرتشفان ... عصير الليمون ... بانت في لحظة جلوسهم سحناتهم متشابه وبان على شفتيه حروف متناثرة لم ينبس بها خوفا ... من القادم !

في الخارج الشوارع تحتضن الناس ... وهو غائب تماما عن نفسه وهناك ثمة شعور يخامره بأن يأخذ بالسكين المسننة ذات الالتماعات ليقطع الروزنامة المعلقة في

الكافتيريا وقد اختفى منها شهرا كانون الأول والثاني ... الصمت إنه الصمت ...زرع في أكبادهم وصدورهم الغصص ... وزمهرير العاصفة يفتعل ضجة في الممر الذي جاور طاولتهم . وقد كان حوار وخلاف بين زوجين لم ينته إلا بوعد منه .. بتسجيل ما يملك من عقارات باسمها ... حتى أنه كاد يسجل نفسه باسمها ...!!!! وفي غمرة الضجيج فاجئها بتحرك شفاهه وعيونه ورموش حواجبه معا :

– إذن لم تعرفيني بنفسك للآن ؟

رمته بنظرة وابتسامة طفلة فرحة .. بدمية جلبها لها والدها في عيد ميلادها .

– أنا فتاة من هذا الزمان !

فأطلق ضحكة اثارت ريبة الزوجين الجالسين في الممر وخفف من حدة الضحكة بارتشاف ما تبقى من قدح الليمون .

فسألها متحشرج وهو يطلق ابتسامة مصطنعة وقد نظرت إليه بسخرية تامة ربما أرادت بذلك ردم الهوة وسد الفجوة :

– أعرف فتاة ولكن ما هو اسمك؟عمرك؟ عملك؟ شهادتك؟ هواياتك؟

فجر سؤاله ابتسامة عريضة كشف عن صف أبيض من أسنانه .

– هل تريد أن تعرف كل هذا؟ يا لك من فضولي؟

حتى أنا لا أعرفك للآن .

انتظر الزوجين وهم يمران بمحاذاة طاولتهما وقد بان على صدر الزوجة صاحبة الزعيق .. عقد من اللؤلؤ وأقراط من الالماس وهي ترمق الاثنين بنظرة احتقار وراحت تهز بيدها وتغادر وهي تتماهى وتتمايل بمشيها ويتبعها الزوج الدحداح الطائع.

– أنا ...صائب .....

وبدأ يسرد قصته من توضيب حقائبه ... إلى نظرة تلك الزوجة التي أطلقتها في لحظتهم تلك ... فحيح انفاسه يكبل حزنه لم يتردد بسرد ما راته عيناه وان امتلئ صدره بحزازات الغيظ ... تلك أيامه التي خاتلته كطخياء الديجور ... وسطوات الليل التي تسرق أحلامه لتدس كوابيس مكانها فالوقت يداهمه والزمن هائماً وحيداً... يفتش عن داخل أجسادهم عن قبس يأنسه فيهم ... فيرده أملهم خائباً... والمساجد تكبر على ولادتنا وموتنا ... والكنائس تدق نواقيس الحرب... تتلى فيها صلوات التوديع وترتفع الدعوات ... الصمت يخيم كخراب يحل أزرار قميصه ويدخل رأسه في جيبه ... حينما أخضلت عيناها بالدموع بحجم النمل ... ربما لأن النساء يعشن البكاء ويمارسنه يومياً خصوصاً حينما تكون هناك حاجة ملحة في داخلهن ...دماغه المنقسم إلى أربعة أجزاء متساوية الأضلاع كقطع جهاز الموبايل أو الإلكترونية ... وفي كل قسم كان هناك سرادقات منتشرة في شوارع رأسه ... يسأل مع نفسه :(هل تتمادى الأعمار وتتطاول الدهور؟)

يكملان الفصل الأخير وكل منهم عاد ببروفايل كامل عن الآخر ... يسحبان قدميهما من طاولة (١٣) قد لملم معهم شهر آب أيامه ليغادرهم وعند مسؤول الحساب قد شد صائب ذراعيه على رقبته وبدأ يفتعل انشغالاً وهو يشيح بوجهه عنها ... وقد رمقته بابتسامة طفولية ... وهي تدفع الحساب والبقشيش للنادل ... لتجذبه من معصمه بعد أن انتهت وهو لا يزال يتظاهر بالانشغال ويجتر لنفسه فعال مختلف ... تراخت قبضتها وفي الطريق راحت تشد من أزره وبروح الرسامة التي تحاضر في معهد الفنون الجميلة وتصبره باشتراكهم في خصيصة شائعة الوجود وليست نادرة وهي الانقطاع من شجرة كما يسمونهم في مدنهم ... والولادة من فتق الحائط كما يسمونهم أيضاً!!!يتوسط الفيافي الغائرة ... تخترق مسامعه كلماتها الدالة على تجاربها الواسعة في الحياة ... رغم عمرها واسمها (سماح) كان يدل

على سموح في تصرفاتها فعلى رغم أن مسكنها وبيتها مع طالبات الأقسام الداخلية التابعة لإدارة المعهد إلا أن تجاربها من خلال كلامها لم تحدد بمديات هذا المكان .فكثر هم من سبقت اجسادهم عمراً من أرواحهم ... وتقدمت عقولهم قبل أعمارهم ! لملم انكساراته وسط السيارات المارقة .. من أمامه ... وخالجه شعور بوخز الضمير..للتأفف الدائم ... تنهش ذاكرته الست آمال .. وحارس المقبرة ... وكومات اللحم .. التي تنام في اسفلت الشوارع ... والمصحة ... يتراخى امام انظاره على تلكم الصور وهو يسند راسه إلى النافذة وبات وكانه اريب آنذاك ... بتفكير تالد لونه ... سحيم ... وفاق على اندهاشة من شكواه لاذنيه الطويلتين وعيونه المحملقة بسرير يسير في الشوارع وعابروا السبيل قد قفز أدهم عيونهم ليرتمي على السرير الفارغ إلا من امراة ورجل ... اتفقوا شرعاً وقانوناً ووفق ورقة في جيبهم لممارسة حق يراه من حرم منه جرماً مشهود ... ربما المنظر بدء غريب ما فتئت انفعالاته التي تدعك صدره وهو يفكر بإمكانية ابتلاعه يوماً ... من قبل الزواج أو الحروب أو سكين الجزار (فهل ثمة تساوٍ للثلاث) هكذا بعد أن أنهى تفكيره تساءل؟ بنصف رأسه المبتور ينكفأ على وجهه وهو يتكور داخل الباص وثمة عربة تحاذي الباص يدفعها عجوز بملابس رثة يحمل فيها شاب داكن السمار وقد بترت ذراعه على سواتر مستشفى المدينة ... شعر بخدر يغزوا قدمه اليسرى كانه يمتد لبقية جسده ... التقط انفاسه ثانية ويطلق تنهدات ازعجت الرجل الضخم الذي جالسه الباص .النجوم تغار والعيون تنام والقمر المثلوم يراقب ليالي العشاق ... والمهمومين وخواتيم عمله تدثره مع كومة اللحوم البشرية ... (سماح) دفنت وجهها بوسادتها واستسلمت للنوم وهواء المروحة السقفية يجفف حبات العرق المنتشرة على وجهها مع ابتسامة تفضح هيكل فمها وقد تتطاير مع خصلات شعرها صورة الزوجين الجالسين بقربهم هي وصائب في تلك الكافتيريا ...في جنة المشردين حيث طابور

العمالة والمتسولين والباعة يحتضنهم الرصيف بكل حميميه وكأنه خلق لأجلهم ... وكأنهم في قن دجاج ... سؤرهم في جدران إسمنتية وأسلاك شائكة وكتب عليها:

(منطقة خطرة يمنع الدخول إليها لغير المخولين)

ربما يمنحون مستقبلاً نقابة باسم (نقابة سكان الشوارع الليليّين)

وكان نومهم ليلتئذ مخزوماً ... وعند منتصف الليل يبدأ التنافس بإصدار أصوات الشخير المزعجة ... مضى أسبوع ثقيل ... والقنديل الزيتي لم يبدل وظيفته .. وبدون سابق إنذار تغير الطقس .. وفتحت الأرض فمها فهي ظمئى ... لترتشف غيث السماء مع تراكم السحب والأشجار التي أورقت ... والثمار التي أينعت ... والمطر ينقر زجاج النوافذ فيحتكمون إلى المواقد في جلوسهم وجدران المدينة تغرق بالمطر المتشظي ... رغم هشاشتها كانت صلبة وداخل بناية الاقسام الداخلية للبنات كانت الستائر تتحرك والليل ينبعث منه الصمت.والباب يجيء ويذهب ليصدر أصواتاً كأنها دقات قلب (سماح) الزمازم تخيف الطالبات ... فيطلقن مع كل رعد صرخاتهن والحباحب تدور حول غرفهن لتهدي من روعهن ... مدير الأقسام القزم رجل معاق على كرسي متحرك .. ترك سقوف الأقسام مثقوبة والزجاج يمرر زخات المطر بسلام .... كومات اللحم إلى جنتهم المحتومة ...البرد ينسل إلى جسده وتنخر صدره نوبات السعال فترتجف إضلاعه كاملة ... مما جعله يقرر مع نفسه أن يبحث عن سكن وعمل وبصورة جدية ... نباح الكلاب يمنح كومات اللحم الاستيقاظ المجاني لا اكتظاظ الحركة المرورية وخناقها ... قدماه قادته لحي حرم عليهم امتلاك جزئيين لحاسة واحدة فهذا يمتلك اذن واحده وذلك بعين واحده منطفئة واخر بقدم يتيمة كم هذه المحطات تشبه كثيرا احتساء فنجان قهوة في كافتيريا على طريق السفر لحل مشكلة ما..التنبلة والغنوصية والنكوصية كانوا يتعالجون فيما بينهم بالهذيان ...هذا يصف له الدواء بنصف كيلو ديمقراطية

والاخر يصفها بنصف شفافية والاخر كان يحتاج إلى ثلاث جرعات حرية ...!!!بدء يجوب الشوارع حيث الوجوه المختلفة ... وهو هائم على وجه يمرغ نظره إلى المارة ويدور مع حلقات جسده .. الأماكن الهادئة داخل جسده بدء يتسللها العتق ... معدة قديمة .... أمعاء قديمة ... اثنى عشر قديمة ... وقلب قديم ....!يتسلل الملل إلى رأسه وهو يدرك تماماً أن تسوله وظيفة أو عمل ما لن يجدي نفعاً في هذه المدينة ... تعرجات الشارع والتواءاته تنكفئ بجسده المترهل على وجهه ...ليعطف عليه متسول ينخرط من ارنبة انفه سائل اصفر .. بعلبة بيبسي باردة كان قد اشتراها لوالده المقعد في نهاية الشارع ... قدماه تدور به المدينة شبرا شبرا .... مر شهر من اخر لقاء ولم يرى العمل ولا الدار ... وقبل ان يسجد كامل جسده .. ويهوي إلى الأرض كان جسد سماح يسنده... وقد اوصلتاه قدماه إلى بوابة دائرة الاقسام الداخلية للبنات ... وعلى اريكة الحارس ذو الشعر الأبيض وشى لها بحاجته الماسة إلى السكن النظيف والعمل المحترم هدأت منه بقدح ماء وقد لطمتها فكرة قد تنفعه ...لم تبوح بتفاصيلها قبل ضمانها ... والتأكد منها ... فزفت له كلمات قلائل .. طلبت منه ان يقابلها صباح الخميس عند بوابة دائرة الاقسام ليصحبها واوصت ذو الشيبة البيضاء ان يستقل سيارة اجرة خاصة لصائبا لتقله إلى المكان الذي يرغب في قضاء ليلته به كالعادة رمته السيارة مع كومة اللحم وبدء كبيرهم يشك بانه قد يكون (مباحث .. امن ... مخبر سري) فهو يدرك حينما تسلم نفسك للشارع يصبح كل شيء مباح!! بدء الاحتفال بحرق السكائر ليعلن عن حالة بدء كومات اللحم بالخلود إلى الموت الموقت.. وهم يرمون بأجسادهم النتنة وكأنهم يضاجعون الأرض ... تنطفئ أجسادهم واحدا يلو الاخر ... وتنطفئ معهم عيناه ... بدمعة قافزة على مساحة وجهه الذي كتب به صورة سماح والست آمال وحارس المقبرة وموارد المصحة وكومات اللحم ..... المتناثرة قرب جسده المرمي

على هذه الأرض. وبدء الليل العجوز يرضخهم ويؤثث عجزه بين جنباتهم وهم يماطلون يأسهم بلا تريث. فاغلب هؤلاء قد ماتت جذوة الأمل لديهم وأحالت دونهما والحياة مثبطات عدة فالبؤس يستولي على أفئدتهم ويفتل شاربيه وينتصب بجموح غريب وهم يتواشجون مع معتقاته ليدثرهم الليل عبر المدن مترامية الاطراف! يطبخون ضجرهم على نار الانتظار الساخنة تزجية للوقت.

الفصل السادس

المكان يغلي فيحترق الزمن معه وتمتد الشواخص إلى كهوف النفس ... تتكور الاجزاء وبسكين ملونة بلوث تبدأ بتقطيع انفسها لترمي إلى ساحات المشانق الهلامية التي صنعت فاخرة ... حيث مساحات تشغلها ذئاب وبعض بنو البشر يتعايشون بسعادة وئامية ... تعبق منها روائح الشوك المسور لأسيجة حدائق الزهور البنفسجية ... في زمن تقطع فيه اثداء النساء لئلا يطعمن اطفالهن حليب الوطن ... وفي زمن صارت الملهاة الاصطناعية غذاء لاشتداد العود لدى الاطفال ..حتما ستصرخ الأجنة معلنة حالة حرب تجفف ضرع البلاد ولكنها بدون صواريخ ولا قنابر ولا قاذفات لتصطف الابواب وتتسلق إلى نمو احلامه المتعفنة رائحة اليوريا او جوارب جندي مقتول على سواتر الحرب ... طفح مراحيض المستشفيات وتقيؤ المرضى... وقبلة حرب اخيرة يقتسمها الزوجان..... فحتى أحلام يقظته قضي عليها كشباب قضوا عمرهم في التصيد للفتيات في الأزقة والاحياء وبعد ردحا من الزمان مرت احداهن برونق حسن وقد اكملت شهادة عليا ورمت لأحد أولئك الشباب ورقة نقدية عله يوفق لإطعام نفسه بها ! ! ! ! .يترك وراءه يوماً ثقيلاً هو وثلة من كومة اللحم وهم متكئين بقوى خائرة منهزمة ...تنوشه عباراتهم ببرود كسيل عرم جعله ينضح عرقاً ... تمتد أيد لتسحبهم من الدنيا كانت بالمرصاد ... جعلتهم هباءاً منثوراً ... إنه نذير شؤم ... كلامهما يتناثر من فتحات النافذات المشرعة منطق الطير تتدفق نوبات ابتسام كيما يذهب بهدوء ...بعد أن كان يقف قدامه كبيرهم يطالبه بإيجار الأيام السالفة .النشيج يسند جسده على الأرض وهو يتوجه لمقابلة سماح ... وجهه لحظتذاك يضاهي سبورة الطالبات المراهقات وفيها مشاكساتهن وهن يحملن بقع أشرطة حمراء وخضراء.. يتلفعن بها كالعباءات السوداء التي تضم

اجساد النسوة وهن يتسامرن وقت العصر ..تحت بؤرة ضوء بلورية في الطريق حيث تصدع رأسه وتنسفه النتوءات والتصدعات..التي اكلت اجزاء كبيرة من الأرض ... على الموعد المحدد كانت تنتظره بحذائها الرياضي المسنن الذي كان يترك صورا وخرائط على الطريق الطيني ... حيث يقصدان مكانا يحسبان به عملا يلائم صائبا .... وقبل ذلك كله دعته إلى تناول الطعام معاً في احدى المطاعم القابعة في الطريق إلى مرأب (العم سالم) .حيث ما كلمته عنه هناك يتواجد ... حبست الكلمات في حنجرته وهو يسمع بمكان عمله حيث سيكون سكنا له في نفس الان ... يمتص ريقه ويود لو يمد ساقه بيسر .. وهو ماشيا.. تكبس على يده وحقيبة يدها تقع لترميه بكلمة سددتها في مرمى بصره :

– لقد تأخرنا إلا تريد ان تأكل وتعمل وتجد سكنا ملائم ؟

بعيون ناعسة تدل على صخب واعياء يسكن مقدمة رأسه ... والفصل الأخير منه .

- أكيد .. أكيد .. يا سماح .

في مطعم بان عليه مرتع للجائعين فقط ... برزت يافطة حمراء كتب عليها بخط أبيض (مطعم السارحون) وعلى الطاولة كانوا معاً يمدون الصحون الفارغة بنظرات تعجب ربما قصدوا المكان الخطأ ... وما هذا إلا مقهى لمن يسرح في الحياة فيتهيأ... إنه يأكل من صحونها رغم فراغها ... كان قبل الدخول قد أرسلا بدعوة بيد النادلة لتصطحب معها بعض من يودون مشاركتهم الطعام بدأت المائدة تعمر في الأطباق...(طبق حساء ... طبق اللحم ... الرز .. مرق الفاصوليا....وسلطة .. وأطباق لم يطلبها .. ولم يأكلها من قبل) . روائح المطبخ في المطعم المتصاعدة تحتل أرنبة أنفه وتتسلل لأعماقه ...

بين شفاهه انحصرت كلمات كان يود أن يجمعها منطقياً ...

– أنا أحـ.... أحب....

رفعت رأسها اتجاه عينه وأجابته بعجالة ودقات قلبها تتسارع

– ماذا تحب ؟

– أحـ.... أحب .. أحب.. فردتي حذائي .

وهن بدأ بالتمزق .. شفاهها أطلقت تأفأفاً طويلاً ... وعادت تنظر إلى باب المطعم وهي تشعر بالحنق الموقت .

(لماذا لم يأت المدعوون بعد؟) .

يطلق بوجهها فكرة أن يحكي لها عن قصة نسجها خياله يوم كان في بيت الست آمال .وافقت لتغدر بالزمان وتقطعه وترديه أوصالاً ماضية ... يبدأ بعد أن عاد بيديه من المائدة إلى جسده وبدأ يسرد :

- يحكى أن هناك غابة يحكمها أسد مخبول .. ولديه حاشية من الذئاب.. الماكرة ... أما شعبه فكان مجموعة من الحمير وقرود الشمبانزي .. وقد تماهى الأسد المخبول في الطغيان والحكم الدكتاتوري والتفرد بالقرارات ... فكان يمنع الموز على حي القردة أما الحمير فكان يفرض عليهم أن يخرج منهم يومياً جزءاً كبير إلى مسطر العمالة لكي يذوق الويل ويبذل طاقته وجهد وبالمقابل يعمل على على هذا بدون مقابل . وقد ضاقت ذرعاً بالحمير والقرود ولكن لا جدوى من الشكوى اليومية .. التي يطلقون.... فالأمير والقائد والأسد المخبول ... كان يزداد طغياناً مع تقارير حاشيته من الذئاب الماكرة التي كانت تعيش في بيوت فارهة هي خصصت لهم تحوطه الأشجار الخضراء ... الخضراء جداً..

وبدأ الحمير والقرود بتشكيل وفدٍ رفيع المستوى منهم ليزور قرية الخراف لكي يبثوا شكواهم لهم .. وقد أبدى كبير الخراف تعاونه المطلق معهم والاستجابة ، ووعدهم بحل آجل جداً.وذات ليلة ظلماء أغار قطيع من الخراف المتمردة

وبشتى أنواع الأسلحة الثقيلة والخفيفة على مدينة الأسد المسورة ... ولم يغرهم الخضار لتلك المدينة وبيوتها الفارهة ... لتنفيذ مخطط الانقلاب ... وإذا بهم يواجهون مقاومة شديد من أنصار الأسد وحاميه من القردة والحمير ! ! ! !

انتهت القصة يا سماح ما هو رأيك ؟

أطلقت ضحكة طويلة جعلته يبتسم ومن ثم يضحك بقوة لأول مرة في قاموسه يفعل ويرى ... وبعد توالي نوبات الضحكات التي جعلت نقاط الماء تسيل من وجنتيهم بدءا يهدءا بعضاً تحسباً وخيفةٍ من انتباه الآخرين .. رمت عينيها على معصمها حيث تنام ساعتها بعقاربها الذهبية وقد تسلل قلق تأخر المدعوين بدءا يسألان بعضاً ، لماذا تأخروا؟ ربما زحام السيارات واكتظاظ المارة .. ربما تشاجروا في الطريق؟ وبعد لحظات بدأوا يتوافدون كأن أولهم المتنبئ وقد صحب بعض بائعي شارعه ويسحب بيده اليمنى أبا العلاء المعري وأحمد شوقي ويتبعهم الخوارزمي بقميص تقطعت ثلاثة من أزراره .. وحاتم الطائي لا يحمل معه أي شيء...ولوح القلق لهم بتأخر الفارابي وامرؤ القيس ..

أما صلاح الدين الأيوبي وعمر المختار فأنهيا شجاراً بسيطاً ولحقا بالركب انضماماً للمائدة حيث يخيم الجميع ... أما غوغول فبقي يدور في الشارع باحثاً عن معطفه ....بدءا الأكل حاتم الطائي بعد إذن من المتنبي بافتتاح المائدة فنسف الماعون وذره قاعاً صفصفاً ... يا إلهي، الفارابي يدس قطعة لحم كبيرة في فمه .. بدت أضراس الخوارزمي وأبي العلاء المعري تقطع الأكل لتحوله إلى معداتهم الشائخة بعض الشيء .بينما غاب نيوتن المنشغل بالبحث عن تفاحته ... المسروقة .وموسليني كان ينظف بعض الأشلاء البشرية ويسلخها في محال بيع لحم الضأن...وهم على المائدة يسلون انفسهم بالتهريج وتبادل الاتهامات بفنطزة وسريالية والنادل يذهب ويجيء ويطلق مجموعة كبيرة من الشتائم بوجوه

العجزة العابثين بالمطعم ...(صائب... سماح) سرقا جسديهم بخفي حنين .. بعد ان تكاثرت طلبات الضيوف المدعوين على وجبة محدودة المعالم .تلفظهم ابتساماتهم وغمرتهم بالفرح إلى خارج المطعم ... حيث الذهاب إلى مكان عمل (صائب) الجديد. حارس مراب ليلي تلك هي الوظيفة .. التي تجرعه تبعات الطريق المتموج كطريق حياته ليجدا نفسيهما امام المكان (مراب السعادة للجميع)بوجه شاحب وبطن منفوخة استقبلهم (العم سالم) وهو يعتمر قبعته البدوية ...التي تخفي معالم رأسه ... يرقبهم من وراء نظارته الشمسية التي كلما طرحها ارضا تهاوت سني عمره المنقضي .. وقد بانا حاجبيه البيضاوين وقد رسم منظره الغلظة وعدم الكياسة وهو يدوزن كل ممتلكاته ودون طائل يرشق من يقتربها بوابل من نار الكلام. وصائب حسب كل هذه الصرامة سفسطة كلامية تنطفئ حدتها بعد الاملاء وحسب.. اتضح من طريقة استقباله انه ضابط عسكري متقاعد .. ومهوس بتطبيق التعداد السكاني الصباحي ... على زبائنة في ألمراب ... كان ينام بجنبه كتاب التقطته سماح من مكتبتها الصغيرة لتهديه له وهو مذكرات سجين يجهلون اسمه من الزمن الماضي لتمزق الاغلفة فيه.. بجانبه كانت حديقة شاخصة ومهجورة ولكنها مملؤة بأشهى الثمار الطازجة(رغم أن العم سالم كان مغرماً بسقي السدر التي تحوي الشوك) .

وثمة نهر يحاذيهم وداخل المرآب كان هناك مقر لصحيفة صغيرة .

(الحياة تستمر وتنتهي) كان يجمع دموع سنينه في قارورة بلورية .. لتكون تركته الوحيدة لتدرج في وصية مماته .توقظه الشمس التي تغفى وسط الشاطئ حيث يسبح الصبية عراة ... بل صيحات العم سالم... الذي خط له قانون خاص في مرابه... وقد نبهه (صائب) على السيارات التي تنام في المراب بدون أرقام مسجلة ... فصاح به الحاج غاضباً:

– لا عليك ... لا تحشر انفك بأمور لا تعنيك ..

أجابه صائب بهدوء ممزوج باستياء من الداخل :

- إنه القانون يجب أن يطبق على الجميع ؟!

فأطلق العم سالم صرخة بوجهه وعلى لسانه الكبير بعض الشيء.

- طز بقانونك المنافق وبك .

يسحب تململاته بضجر ووجه حزين ذو حاجة ماسة وهو يظهر عدم الانزعاج من كلام الحاج البذيء .... فالدموع انهار جارية تحرق اجنحة الفراشات والطيور وتؤد الاجنة في بطون الامهات والحاج الذي يستبدل النساء بأجزاء من ثروته الطائلة يعود بعد لحظات ومعه وديعه ويصرخ (حريق !!!) مع حملقة من تحتي قوسي حاجبيه المشتتة،هكذا يتشعشع عالمه قافزا لتطمره الهواجس ... التي تتهدل لتثير قرقعة الجلاد على اسماعه ليحفر قرارة نفسه بعمق شاقولي ... يبصق على الصخور العارية لتمتد ايد خفية تسحب العراة والكتب التي لم تقرا بعد ... الاخرون يعرضون انفسهم على اعين الاخرين... دأبوا هكذا لامساك قطرات الماء بكف محدود .... فالدم اضحى نشمه حتى في وسائد راحتنا ونومنا ...

في بلاد لا يستريح فيها الدم وهو يعايشنها وبين ظهرانينا يقبع ... ونحن نعرف جيدا الفرق بين الدم المتيبس واللزج.. الذي يزين اسفلت الشوارع ... فما ان يجف احدهم حتى يلين الاخر !!! ونعرف عدد الاحياء في بلد نعد فيه الاحياء لا القتلة ... فعند كل موضة قتل جماعية ... نهرع نعد الاحياء الباقين!! الأقدام ترشد بعضها إلى بؤرة المكان ... وثمة آذان من حجر لا يهمها ذلك! ثمة حريق أصاب النهر المقابل وجع النار الشابة تغلي وتهشم الدور المجاورة ... ارتمى احدهم ينقذ ما تبقى من الماء فكل شيء حيا خلق منه ... وارتمى الاخر وراءه ... ربع سكان المدينة ارتموا ليمتصوا النار ... وهو غير ابه لما يجري .

(ليهلكوا ... ما دام نهايتهم الفناء ...) قالها وهو يعود لسريره المتهرئ... صار النهر يبتلع الاسماك والإنسان والنار معاً.... طيور السميرغ تهرع لنجدة الناس في النهر وتنتشل قطعان الاسماك ... وثمة طائر سميرغ يقبض على خاتم خطوبة في فمه ويولي هارباً ...ربما لان الطائر يدرك تماما اننا في عصر تختار الزوجات كما تختار الدمى ...!صراخ النسوة في الخارج بعيون بانت كأنها سهرت الدهر كله ... كاد صراخهن ان يصيب الاموات بطرش مزمن ! وهو مرتمي وقد اراح فردتي حذاءه تحت راسه على سريره البالي ... وراح يجاهد نفسه النوم ويستمتع بصراخ النسوة الذي يدور في راسه ... وكانه يستمع لموسيقى حزينة ... وبدت عيناه تنطفأ مع حدة اللهب في الخارج .. وبدء يرقد مع رقدة النهر الذي تخلص .. من النار الهوجاء بعد ان اتخم من وجبة طعام بشرية لا تكرر ربما كل عام مرة واحدة! !

-٢-

النواميس تحترق وتخلف رماداً أسود وبقايا رؤوس مشتعلة وثمة ناموس يتفرد بتمرده وينتزع اللهيب من جسده ويخلع جلودهم ليستبدلها بأخرى .... تلك التي احاكوها لمن يودون ان يكسبوه وقودا لنارهم التي لم ولن تنطفئ ... اشعلوها منذ قرون وقتلوا كل من اراد ان يهيل عليها عذوبة الماء البريء ... يتناءون بعيدا وعقول تحرسها وتسجد لها وتقبلها من فمها وعلى جبينها بوقت الضيق .... داخل تلك النار تحترق الف حكاية وحكاية ويذوب الف قلب وتطمس

ملايين الفضائح ويكتوي الف ثوب لفتيات توهن تعرفن على اضواء الشمس ... التي تراقب احتراقهن بحيادية ... القهقهات تتوزع من هنا وهناك من متسكعين وصعاليك بالقرب منه جرت معاملة اقتصادية يظنها أصحابها مربحة ... اشتروا بنت مقابل مال كثير حتى ان الرقم رسم على عينيه علامة تعجب... فتاة في مقتبل العمر حرقوا ثياب مدرستها مع دفتر الدروس تحسبا لمعاملة اقتصادية صحيحة او

قد تثير غثيانهم بالتعطيل والرفض ... كانت عيونها مجرجره ... تشبه بكثير عيون الفتيات الصينيات وكان الثوب الاسود الذي ارتديت يليق بها تماما لحظتذاك ... والدها بدء وقتذاك كانه لا تهزه اعتى العواصف وهو يوزع ابتسامات مجانية لفلان وعلتان... وتارة يتدارك تهاوي عقاله فيميل اليه بالتعديل والتصحيح والحذف والاضافة . فكان شغله الشاغل أن يظهر بمظاهر الرجولة المعتمدة في قاموسه ...ترك ملاصقته للمراب ليكون ضمن الجوقة ولكنه غيرهم ... جعل وجهه يقابل وجه الاب .ورمقه بنظرة غاضبة وقال بصمت حذر وكأنه يكلم نفسه :

– لعنة الله عليك اليوم سيسقط عقالك يا رجل ؟ انظر لعقالك إنه يتهاوى كعرش الطاغوت.عيون الأب كانت كأنها ترد على صائب بلغة خرساء:

– سأستعيدها فورا.....

أطلقت عيون صائب ابتسامة شامتة ...

– لقد حلق جنحك يا رجل ... انظر اليه الا يوازيك عمراً او أكثر بقليل .!

لينصرف ولم ينبس ببنت شفه ... ترك الكلمات الشامتة تتجول في سماء عيني الرجل ... انه كلمه بلغة العيون التي لا يفهمها الا اصحاب الشأن والتجارب والمكتوين بهذه النار ... بدت السيارات تخلف وراءها الغبار ... وبدت دموعه متثاقلة وهي تسيل على خده ... الشائخ ... ربما اثقلها كومة المال المخبوءة بجيوبه..وفي غرفته البائسة كان يهرس ورقة نقدية ويطعنها بكافة اصابعه ...

(الهذا ... تقتلون وتشترون وتبيعون الاجساد ؟!)

تلابيب ذاكرته تحيله لفتاة الحرب وبعض العاملات مع الست آمال ... ذاكرته بدت طاعنة وهي تؤرشف كل هذه الصور في ذاكرة سعتها عمره وفقط .. فهو لا يطيق ذاكرة ما بعد عمره ... رمم بعض تشظيه ولمعه ليأخذ قيلولة بحضن دافئ

وهو يحقن نفسه بالمياه الآسنة ...وأوار الغيظ تجعله يرسل طرفه إلى سقف غرفته حيث صورة (سماح) تتعلق بشكل هلامي على جميع الأجزاء ... يضمها إلى قلبه فقد تاقت نفسه لها ..الضباب الصفيق في الخارج يحمل معه رجل وجهه كأنه بسطال عسكري ..خاض ثلاث حروب كبيرة واحدة انتصر فيها والأخرى خسر والثالثة وقع اسيراً..لدى العدو .. وقد عبأت قواه .. بعينان تشتعلان نار .. كأن ارضعته الدنيا شرر ...وصائب يأخذ بعرق جبينه ليرمي به على الأرض ..ظهر في اخمص قدمه اعوجاج وقد كلعت رجلاه ... وهو يحمل صولاجاً فضياً ويعتمر قلنسوة سوداء ... ويمسك مفاتيح شاحنته التي تنام في المرآب ليومها الأول .. فغر شدقيه كوحش بوجه صائب .. وكانه حطم اغلال حديد للتو .. مما استرعى انتباه صائب كثيراً:

– تفضل يا سيدي أنا المسؤول هنا الآن .

توثب على قدمه في خطوط متساوية وكأنه يستعد لشجار مراهقين ... واطلق بوجه صائب صرخة .

– ألم تلحظ أن هناك بقع زيت على الشاحنة لماذا لا تقدم على غسلها ؟!

كفكف صائب شروده ولم يعبأ لزعيق الرجل الذي بدا أنه يريد عصب فمه بطوق محكم .... وقد ألف نفسه يرده بهدوء .

– سيدي هذا ليس واجبي، وأنت تعرف هذا جيداً.

ومشى إلى زير الماء مستديراً لكي ينقع بلعومه الناشف من حدة صراخ الرجل والحر ..تقدم صائب وقد دعك الغضب وجهه وخفق نعله تصدر أصوات غريبة .. وقد أمال براسه لصائب .

– سأمسح بك الأرض !

وصائب بهدوء ترك بصره يجول في ساحة وجه الرجل ليقول له بانكسار

– ليعود رب العمل وكلمه بما تشاء .

تلك الأجوبة مكسورة الخاطر جعلت الرجل يقد القوي ليستدل بها بسؤال آخر لصائب :

– ألا تريد المقايضة ؟

وقد طالعه صائب بجسد نصفه مهزوم

– بماذا ؟

– جسدك بحذائي .

ليطلق ضحكة بعثت برائحة الخمر من فمه العريض .

لم يعد يحتمل صائب ترهات هذا الرجل الذي خنقه بوترة واراد ان يسومه المكروه ويجرعه قواتل سمومه ... فهو اضمر ذلك وهو يشحذ ظبة مديته ليخلق الفوادح .. ربما الحروب عودته .. سحائب المكروه تغطي سمائه وروح الدنيا تخرج وتعود لجسده ويصب جام غضبه المشحون ليجعل ذلك الاطفال يطلون برؤوسهم الشعثاء من باب المراب وهو يتهامسون :

(سيقتله ... سنشاهد صراع كالذي نشاهده في التلفاز)

ولم يزعجهم النظر إليهم حينذاك ... إلا أنهما استمرا...

وأذكيت النار بينهم وكان صائب حسبه أن ينتزع أجرة المراب وبان عليه الغضب وأوشكت كفاه أن تغيب في وجه الرجل وقفا حيال بعض وفي الخارج ثمة فاختة وببغاء يرددا كالصوت وصداه يعبر مع سواد المولدات الكهربائية التي تغبر الجو ... لتصل لسمعه أصوات متقطعة ... عن كلمات موروثة داخل عقولهم ... ولا صحة واقعية لها ... لكنها تبقى تطرب الأذنين ! ينجلي من صدريهم شجن الشجار الممقوت فيهم لحظتذاك ... وطفق يسأله عن إمكانية إعطائه الأجر والإسراع بالمغادرة .. ليسحب الرجل على غصة ورقة نقدية ويرميها على الأرض

– خذ يا ابن الكلبة هذا أجرك .

يرده صائب بوجه متكسر من الغضب والبغض...

- يا سخيف ضاعف المبلغ فليس هذا المتفق عليه؟

- هل تريد أن أضاعفه لك .

ليجيبه صائب بكلماته سريعة :

- أكيد وهذا حقي .

فهرس الرجل الورقة ومن ثم مزقها قائلاً لصائب

– خذ ضاعفتها لك الآن ! !

وما إن كاد يصل كف صائب الأيمن إلى وجه الرجل حتى دخل صاحب المرآب بحاجبيه البيضاوين وهو يرسم بسحنته تعجب لتحوط الثلاثة ريحاً صرصراً عاتية جعلتهما يذرا بعضاً بعد أن دمدم صاحب المرآب مع زبونه ومعرباً عن أسف لم يسمعه صائب جيداً .وعلى غير العادة أسمعه قليلاً من خشونة الكلام طالباً منه أن لا يحتكم لعقله مع زبائنه وأن يتركه هو من يتعامل معهم ... لتلج على وجهه الآن الأسئلة والاستفهامات ..... علّه يجد أية مبررات للجرذان التي تعبث في تلك القمامة التي يحلق بصره إليها ... وضوء المصباح الذي يقتل اليربوع المتعلق فيه .. يعينه على ذلك ... وكان ثمة جرذين كبيرين يصاحباه النوم في غرفته بإحدى زوايا المرآب حينما سحب قدميه وحروف كثيرة تتكسر بغلاف فمه

طارت مع الهواء ليستنشقها ذو الحاجب البيضاوي .... تنفثات دخان سكائره تنقشع وأصوات عزف شجية تدور في رأسه ... يأخذ من قارورته دمعة ليغتسل به ليلاً ... ويتطهر من أدرانه وأدران ملامسته للآخرين ... وبعدها يذرع المرآب مشياً ليحمل حمامه الصغير بشارة لجسده ... كان يستحم بمرق الفاصوليا والصورة لا تريد أن تغادر بؤرتي عينيه .. يغلق الباب بإحكام ويقيم مع جسده المجلبب

بالأحزان وحيدين.. ليجلس لمواساة الآخر ... يبني بيتاً من الدموع تشيع فيه الأموات .. ليأكل رأسه الدوار ... لكنما هناك هناءات تحيل جسده إلى عربة دواره . الليل يدس له كمائن ويراهن على بؤسه في تمام الساعة الثانية عشر .. خلع رداءه عنه وكان قاب قوسين أو أدنى أنه سيستريح برهة ... تنبجس من مكان قصي صرخة مدوية ...وقد ابتعدت كيلو مترات عن جسده ... فم الغرفة تلفظ الزبد بمصباح باهت اللون ينيرها على مضض... يسمع دوي عال من هناك ... ليشده الشوق إليها فالزمن انشطر نصفين لهما وقد داست السنابك على جزئه المفقود ... الصرخة كأنها رصاصة ميزته عن الجميع ... ردح من الزمن لا يسعه الصراخ وحسب ... تتلظى من العذاب كريات دمه الحمراء وقد ذبلت كزهرة انقطع عنها الماء ... نسوة ينحرن أنفسهن في الأسواق والزوايا والجامعات ... وهي تبحث عن أنوثة في صيدلية خافرة ... علها تجد ما يلائم مقاسها ... بياض الورقة يحيل سواد العين إلى مخبأ بمخبأة رصينة ... جنون الليل يجن معه وجسديهما وإكليل الغار يغطي الآخرين ليجعلهم عاريين ويلفح بهم سواد الليل الحالك. تتراقص المرايا لتصيد فتيات الحروب في ذاكرته.. ذوات الفراء الملطخ الكتوم والوقور والنحيل المنهطل ... والمفرط بالبكاء ... قدماه تتخاذلان وهي تكبح جماحها ... وفي جنباتهم يضيع حلاكة الليل ورائحة الشوق تسطع بالنفوس .... وحمأ أسود ينكفأ داخل رأسه ... لتتوقف ساعة المدينة الكبيرة عند الثانية عشر فيلوح برأسه سؤال قافز .

(هل يجب أن يأكل الإنسان وجباته اليومية كاملة)

لتفوح منه روائح بروتينية وبدا هو مشغولاً بمصارعة الأرق ولا يهمه تساقط أظفار قدميه لأنها ستينع في المستقبل من جديد، وتثمر أخرى حتماً .

الفصل السابع

الساعات تغني ...(تك ... تك ... تك ... تك .. تك) والساحات تمتلئ بالراقصين الماجنين بالوقت ... تمررهم قطع الأرض ووحائلها فيما بينهما ... لكنما هم يبحثون عن انتزاع أنفسهم من داخل الساعات ... فالأميال علقتهم من ألسنتهم وأرجلهم وأيديهم في ساحات الأرض وفي كرسي اعتراف معذب ومتشقق ... ساعات طويلة مرت .. حركتها الأميال المدججة للأمام .. كان ما قصده على شفير النحاس وقد شده الشوق إليها ... ونشارات الحديد تزور أضواء عينيه ... لتشغل التماع غريب يتكئ على وشيع محايد حيث يذبح النسغ ويقطع من الوريد للوريد من قبل صاحبه ... وبدأ يسال هل جرير أنني ذررت النسغ ينزف حتى الممات .. وحال النسغ الذي تله لجبين وقطع أوداجه يرمي صائباً بشرر .

– اقتلني فأنا لا أساوي كلباً سائباً.

تقطع المسافات أنفاسها وتحايل الزمن ... لوصول أسرع وأقرب .. وثمة سمسار عقارات في الطريق يستخدم مكبرات للقراءة لتمضية العقود المبرمة ... وجانبه كلب كان يعتبره ابنه ... ربما لأنه عقيم من الإنجاب كان يشعر بهذه الحميمية ...!وعيناه احداهما نائحة والأخرى تحرسها ... لا يعرف ما الذي أشعل رغبة خبيثة برأسه وأمنية ساذجة أن يرمي ذلك السمسار في اليم ويهيل عباب ماء البحر عليه لا لشيء .. سوى الاستحواذ على مكبرة الكلام تلك التي تفضح الحروف أمام الأعين والأسطر المخبأة..يمر عبر المقهى متجاوز بناية قديمة يحرق لفافة التبغ ... وثمة تلال من النفايات تقبع كصنم في نهايات كل الشوارع ... نوى التمر وقشور الموز وبعض علب المشروبات الغازية تزين الطرقات ...

والشمس عادت لبيتها بعد أن غابت مع القمر والنجوم أسبوعاً كاملاً... بين لفائفها كان شيئاً من صائب يرتسم ويسكن إليها في كل حين ... يحدق لبناية الأقسام الداخلية .. يروح ويغدي .. كان بسيره كأنه طفلة تبذل أول محاولاتها في السير وسط تدليل الوالدين وإحاطة أنظار المقربين ... وفي تلك اللحظة بزغ وجهها من شرفة النافذة وصافحه بنظرات استعجلتها بتغير ثيابها لتنزل المدرج على عجالة من أمرها ليتسرب شيء ما لدواخلهم وهم يقطعون سوق المدينة ... بدأت عيناهم تغيب في بعض وكأنهما عرفا بعضاً في أيام الطفولة ... أجسادهم تأفل بعض وتظهر على حين غرة وثمة لحظات ولحظات تقفز منهما ابتسامة وضحكة وهما يحدثا بعضاً عن اشتراكهم في الانقطاع عن العالم من كل صلة قرابة .. ويحنون إلى شقوق الجدار التي ينادونها بالأم الولود ! وثمة رجل بوجه مكفهر يضرب ضبياً ناعم العود ويرمي صرخات عابثة في ملامح وجهه :

– سأجعلك تتكلم أكثر من لغة أيها الأخرس ! !

يقرآن برجي بعض وهما يتصفحان الصحيفة ،المصادفة كان برجيهما بنفس العبارة يفتتح (مستقبلك سيكون أسوء من حاضرك) يضحكان بصوت مرتفع قليلاً فأي مستقبل وأي حاضر ... يلف (صائب) و (سماح) .

ووسط صفقات القلوب المكتوية .. رسم بجفنه غبطة للسانه وهو يجري تمارين شجاعة للبوح بشيء ما ... ربما سيكرهه لسانه على فعل شيء ما .

يلف قميصه تحت رقبته فتنقطع الأزرار فيهون ... حملا نفسيهما إلى داخل أدمغة بعض ... وبدأت أجزائهما تتعطل واحدة تلو الأخرى ... وهما يحوطان بعيني بعض.وكان الزمن قد جمد وتوقف لديهما .... التأمت الجراح التي لا تندمل .. ووهبا نفسيهما لبعض وقرعت الأيدي نفسها وزغرد الغائبون بحفاوة بالغة ... ولكن ...غابت دعوات الأمهات اللذيذة ! ! ! ورتلا في المسجد القريب

ما يجب ترتيله . كان ينوء بجسد واحد والآن صارا اثنين بروح واحدة ؟!تحتضن القمر وتعانقه وهو يقبل عيون الشمس والظلام يبتلع المدينة والجميع يغط إلى الهدوء والسكينة .. لا يعرف أحدهم ما يدور في دهاليز الغرف الأخرى!! وهما يطارحا بعض الغرام .يقترضا من بعض قبل موجة السداد، يوماً يغار عليها في غرفة الحارس ويوماً تغار عليه بكامل جسدها وأنوثتها ومكياجها لتسرق منه القبلات بعيداً عن صاحب الحاجبين البيضاوين ... يتقصد أبصارها عن كثب لتفتح درفة النافذة فتحس رأسه ليتأكد من وجوده .. يمزق شأنه ليعطيها نصف ابتسامة والنصف الآخر يخبؤوه في مخبأة غوريهم ... تنظر لنفسها في نصف مراة وقد أزالت الغبار المتجمع عليها .. فتغريه حبات السكر المصفوفة مع أسنانها ليرمي بعطرها في فمه .. أية ليلة دخلة تلك ... صرخ لسانه عنه ونهم الاستعلاء يتجرد من بين كتفيه ليسند جسده إلى حائط شائخ..وقد بخع أن هناك لائذ يسرف في التدلي على الحيطان التي تأوي جسده ... قدماه لا يرهقها المسير.. تخفيه من عيون الناس وتحجب صور الأخرين عنه تأخذه من نفسه وتضمه إلى صدرها ... ثمة أهداب تتراقص على الحيطان ترقبهم بتأمل شيطاني وعلى وقع الطبول والدفوف يزداد اللغط العابر.. وتتكلس الأبدان مع كل صيحة عابرة متقيحة ... يلتصق في عينيها ويمنح الرمانة شفتاه ... دون مقابل ...وثمة ما يرقد داخل بطونهم الفارغة ... طائر مشوي .. مغطوس باللبن ... وهما مظفران بسعادة في سرهم .. وعلانيتهم ... لا يبلغان من المدح كنه الآخر ... درابزين السلم تقدمه نحو أتون مجهول ... قد يبتلعهما معا ... تنمو برأسه اسئلة وهو ينتعل حذاء عليه آثار من رماد الشاطئ المحترق... تصلبت يداه وهو يتثاءب لا يعرف هل للآن حواسه تعمل بصورة جيدة وصحيحة؟ فثمة أزميل يلاحق نومه يحتفظ بأوراق بيضاء

وأخرى ذات حبر وأخرى قصاصات ممزقة إلى قطع كتب على كل واحدة منها حرف....وتمر الأيام ... عشرات الأيام .....بعدد الوبر والرياح تتغير والشمس والقمر يتعاقبان وصرامة وجه ذو الحاجبين البيضاوين لم تغادره وبعد كل صرير نازف في الليل يطلق العنان للسانه المضبوط على نغمات السباب والشتم .. لتتحرك بذلك خطوط التاتو لديه... يرقب الطريق بوجه مكفهر وإيقاعات الساعة لم تتوقف .. منذ أيام يطيل النظر إليها ويطلق لعنات هامسة ... ببريق عينيها .. وهو متسلق على فراشة تتسلق إليه آلاف الصور تراوده عن نفسه فيمتنع إخلاصاً لإفراغ عقله من كلها ما خلا صورة (سماح) المؤطرة بسواري ساقطة على رأسيهما ....سارية الليل المصحوبة بالهبا تطفئ المسارج المشتعلة .. في كبد المدينة ... يرقب الطريق .. ثمة شرارات وإشارات قمئة بالخارج وتقاذف أحذية بمقاسات مختلفة ... رعشة الجسد المزخرفة تجعل النظرات تحاصره وصنو الروح الليلك يقبضه بيده فالقلوب في أقفاصها خلجة تنتظر حكم الإفراج من حكم المؤبد ... الجو المفعم بالضجيج والصخب الذي لا معنى وسبب له يحمله ويرمي به داخل ليله .. تولدت لديه فكرة فأعادت له مشهد أنه كتب حياته بقلم رصاص قابلة للمحو ... النهار الملتحف بالسواد ما لبث حتى بدء يدق ناقوس العمل على الأجساد النائمة .... وقد لمح صائب ذلك النهار قادم من النافذة ... ولكن بهيئة غريبة ونبراته مختلفة فعينه مخضبة بملامح المحتاج بإلحاح... وفي لحظة فريدة صفع صائب ليرمي شرشفه المغبر عن جسده ... وعلى أصوات الباعة المتجولين التي تطغى على المدينة ... كان يسير ويرقب المارة ... يبحث في وجوههم عن أشياء قد أضاعها في أعمارهم ... وفي مقهى صاحب الكرش وعيونه الداكنة صوحت الأرائك لجسده ... فهي خائبة قد لفها الليل بزجر ... وثمة فحيح صادر من شجرة اصطناعية تقبع جنبه وهو يرمق

قطع الشطرنج باستغراب .!فالبيادق قد غيرت مكانها والملل ارتدى زي الجندي والجندي فعل العكس ... والقلعة بني حولها سور من اللحوم الآسنة ... والكتل الإسمنتية ... وصاحب الأنف المفلطح بجسده الملطخ بشتى أنواع السوائل يؤمن المسير لقطيع الشطرنج ..زورا من طاولة لأخرى ... يقبره بنظرات حاقده ... تزعزع داخله ويساقط المظلة المسننة على أنفه المفلطح ... وقد ترك كفه تصفع أحد عماله الذي شده المنظر فضحك بصدق !

ثمة جسد في الخارج مشبوع بعطر نسائي ... كانت على موعدها يأخذان بعضاً بعيداً...عن الأصوات ... يمر عبر زقاقات متعرجة فارغة ... إلا من لهو الصبية ... ومشاكساتهم ... وثمة طفل مقعد بقدم واحدة أثارهم منظره ليجالساه لدقائق ... وقد برقت عيناها بغتة وتذكرت رسالة القزم المقعد مديرها الذي كان يدير المعهد والاقسام الداخلية معاً:

(الست سماح مع تقديرنا ....

نحترم اللحظة التي بدأتِ العمل فيها معنا ويؤسفنا أننا صرح علمي ومعرفي وتربوي وليست شقة مفروشة أو منتجع للأزواج المشردين ... لذا قرر مجلس ادارة المعهد طردك فوراً وبالإجماع..... في العاشرة صباحاً ...) وقد ذيلت بتوقيع المدير .

طردها شر طرده ذلك القزم وبدون سابق إنذار ... ربما حسب تعليلها لصائب أنه زير نساء طلبها ذات يوم وامتنعت ... والآن ... تحرك لسانها .... والآن ... صورة صاحب الحاجب البيضاوين ... تصرعه بوحشيتها .... وصورة القزم تفصلها عن مصدر رزقها ... ليس هذا وحسب بل أكملها بطلبه بمغادرتها من الغرفة ليعيدها تحت إدارته .... أذانهم تبتلع كل الأصوات .... بدون وعي

... وكأنهم انفصلوا عن العالم الخارجي ... وتوحدوا في بعض... فغاية المكان لديهم كأوراق صبية هاربة منها وهي تركض بقدمين ناعمتين بكل براءة ...

هل أصحبك إلى غرفتي لنجالس الجرذان وكافة الحيوانات والحشرات الصغيرة ... أو ماذا...؟ همسها بأذنها بتردد ولكنها كانت متفهمة للقرف الذي يصاحبه هناك في المراب .. فقصدت بيت صديقة لها لتريح جسدها بعض الأيام ... وبعدها ستسال نفسها ؟؟؟ إلى أين ستذهب ، أو يذهبان ؟

ثمة جدة معمرة في بيت صديقتها تتدخل في كل صغيرة وكبيرة حتى تود مراراً أن تفتح أدمغة أهل دارها لتفتش تفكيرهم ... ولكن لا مناص ...! هذا الحال .. أفضل .. من ابتلاع الشوارع للأجساد ... وآلاف من كيلوغرامات اللحم تتناقص يوماً بعد يوم ... وتشوى بالعراء!

-٢-

في كل حين كانت ساحته المقفرة وفيافيه تفر وتختال صورته المعلقة في كل الجدران ... ليرتدي وشاحات سوداء ألبسوها له .. وأهرقوا دمعه مكابرة ... وهو يعفر خده بذلك ...يروقه كثيراً ... منظر العاج .. بيد الجدران وهو يساقط المتسلقين ولكن ؟ الساقان اللذان حاكهن بمقياسه ثملتان يخطو خطوة حيرى ... ويقدم له قربانا من كدر سنينه .... ويكسو أشياءه بقطع ألسنة المدينة ... الهاذية بلا توقف ... ليعزف انثيالاته ويحاسب السنارات التي تطير محلقة لاصطياد قوز القزح ... ويعض أسماك الحرية والفرح ... يوقظ قدميه نسيم هواء عليل صادر من فتحة نافذته ... وبقعات ضوء تخلل أرجاء غرفته يصبحان اثنين معاً وبضغطة زر مسح ظلها ... من أمامه خوفاً من صاحب الحاجب البيضاوي .. يتجشأ بهستيريا ... يتصفح وجوه ويقلب أزمان حرور ... ويضفي صبغة على صحته طوى رأسه ...

وراء ستار تطاولت ابتساماته لطرق المدينة وهي تستقر بجنب (سماح) ثبتت كتفيها على خصرها وحدقت به مشدوهة ... وقد بدأت بعض اجهزة بطنه تقفز من بين فمه .. يزدردا الطريق بقدمان فيأخذ قبضة عريضة من عمى عيونهم ... يكتفا ايدي بعض في الكلام يربحا بالضحك أجساد بعض ... وقد ظهر على خدها بقايا من بكاء الأمس .. يترامى على بصرهم تهريج عذراوات لم تفتضهن جامعة قط !!!وأثناء المسير والتجوال يحفرا الأرض بأظفارهم تاركين ندب على كل مرحلة فيها .. يستخرجا روحيهما المدفونة بالقاع ... لتنزل من عينيها رصاصة من بقع دم طافرة ... تتقافز على الاصطبلات ... ضاع نصف القمر ... بليلة رمادية وثمة ساعة نوم اسطورية تتفسخ من خلاياه المترابطة والمشدودة بحزم ... وقطع الطابوق المصفوف بدأت تتمرد وتأبى ان تكون مجايلاتها تعتليها ...!طقطقة أصابعها تجعل العذراوات تزني برأسه ... وهناك حيث الدور ترقب اقدامهم وقرب الموقد عباءة تحترق ومن فتحات الباب الامامية يتسلق فيلق كامل مدجج بأعتى الاسلحة ... يبحثون عن سائل منوي ارتكب جناية عظمى حسب ادعائهم .. وهو مضمخ بالذل يلتقطا انفاس بعض الزائغة ... لتردهم الزرقاء بثقوبها السبع وهي ترد السلام على الوافدين .... وساعة المدينة الكبيرة بدأت تغادر .. وفي صالون الأزياء حيث احتلت انفهم عطور مستوردة من البلاد الأخرى .... كانت هناك نسوة يصورن انفسهن عاريات بارقى الماكياجات ويكدن أن يبتلعن أحمر الشفاه لطبقته الكثيفة ... وفي الخارج كان ينتظرهن رجال غلاظ بشوارب كثة وعقول سخيفة نتنة مستغفلة !!! وثمة أصوات طقطقت علكة صادرة من الداخل المجهول بالنسبة إلى أولئك الذين تجمد انتظارهم طويلا بلا سؤال عن ما يحصل في الداخل من مقايضات !!

تستوقفهما نقطة عسكرية ... قابعة في إحدى الشوارع .

– ماذا معك ؟

– طائرة أباتشي وبندقية كلاشينكوف .

وقبعه مثقبة بعبارات نارية من صنع محلي

وأذان مقطوعة بشيفرة من صنع محلي كذلك .

وذلك الشرطي قابع في السيطرة الذي لم يتعلم القراءة والكتابة ولكنه تعلم كيفية اطلاق الرصاص بصورة حسنة في بلد للرصاص وقع أكثر من الكلمة . حتى أن والد الفتاة ليسأل المتقدم لخطبتها (هل تجيد اطلاق النار ؟!)

قابع بكامل قواه وقد أغرقه الفقر .... وبان كانه للتو فارق للحظة انقطاع الحبل السري او هو أحد أطفال الأنابيب ... أصدر عطسة خبزت أذنيهم بأوساخ فمه قبل أن يكرمهم من بذخ لسانه بسيلا من عبارات السباب ... انسابت رائحتها لتثقب اذن صديقه الشرطي الآخر بأذنه الواحدة ... ثمة وقت مهيع أمام قدماهم بغمامة خضراء ... تسفح يومهم ... وتغشاهم.. وبان كأنهما ساعيات للوصول إلى ذرى الجبال .. تنزت غصن البان (سماح) واصدرت خربشات لجوجة جغرفته ... وجعلت الريح المزمجرة محض اشتهاءه... يدس ناظره برأسه المدقع حيث تتجمع اكوام من زمان عابر تسيب على أرضه الساخطة ... يتفرد بنفسه وينبت برأسه كالنعامة ويصرخ وهو مدان من صلع قلبه ورأسه (أنا .... اين .... من ...)وارتمى لالتقاط شفرة قذرة ليقطع احدى اذنيه حتى لا يسمع كلام الناس والضجيج الصاخب ... لولا لمسات غصن البان ...!وهو يتخيل ان كل سكان الأرض يهيمون بقتله بحراب جرباء ... فيبحث عن زرق حقنة توقف قلبه موقتاً ... ربما لسنة أو سنين أو حتى أكثر ... وثمة مخبز يبيع الخمر فتسمر أمامه قطيع كامل بشكل طابور مهيب ...!وعلى الرصيف الممتد لطريق الخارج .. كان بيدرا يلوحا بارتماء كومتي .. تراوده اضغاث اقلام (عربات

حرب تتجه إلى ساحات الوغى وجنود اسلحتهم فارغة من الرصاصات وهم بدأوا بدون قبعات فلا يعيرون اهتماماً لتلويحاته)

ربما الموت في الحرب افضل من الموت على الأرصفة ؟؟ عقله أوصله لهذه النتيجة؟وهو يتوفى إلى إغفاءة طويلة وحارس المخفر القريب بوجهه المسخ يهيل عليهم مع جنوده العصى ... تركوا العنان لعصيهم لتنهال راقصة على جسديهما ... ليسحبوا بعد ذلك جثثهم المنهكة إلى سجن المخفر .. ويستقبلوهم هناك بعصاهم الوقادة وألفاظهم الكريمة !! ليفرقا بينهم سجن يكرم فيه المرء ويهان العدو !.ثمة جرذ كبير بحجم الفيل يقبع معهم في السجن وضابط المخفر يزعق بأعلى صوته :

- إنه ليس بيتك يا سافل ... إنه ليس فندق يا سخيف .. إنه أرض للدولة .

يصرخ ويصدر أصواتاً ولكنها بصمت ... ولكن هناك أصوات أعلى منه .. تؤد أناته...أبدان لم تر الشمس قط ... الغرف هنا كأنها كهف مهجور بجدرانها المطلية بالصحف وعبارات متطايرة ... خطت لتكون جرعات أفيون في اوردة اللحم ... يمنحونهم غرف منفردة داخل السجن !بدون خدمات ... وسجين بدين يصدر صرخة كعواء كلاب دهسته شاحنه (ليلعن اليوم الذي ولدت فيه .. لعنة الله على يوم ولادتي ... لعنة الله على رحم امي الذي حملني وتبا لظهر ابي الذي قذف بي هنا ...)

تقفر الأيام ... والآدميون هنا .. يحبون المال حباً جماً .. ويأكلون التراث أكلاً جماً...وسماح تمسد شعرها الذي بدء بالذبول على شاطئ القذارة والوحل .. كوجنتيها ... يهمسا لبعض من خلف جدران لها أذان ... تناجيه بوقار وهمس غير مفهوم ... حتى يغفيان .. فتجانس رؤوسهم آلاف الصور ...هو ...(الست آمال ... المقبرة .... الحرب ... المصحة ... المراب ... رجال ببدلات سوداء ...)

هي ....(القزم اللعين ... طفولتها الغامضة والمسفوحة ... وملجا الأيتام ... وبعض الصديقات القلائل ...) عجيب امر هذا الصباح تجمعا فيه الشمس والنجوم والأقمار في أن واحد ... هي تحس بوجع صادر من داخل بطنها .. يمسكه الألم مرات ... متفاوتة وزعيق السجان يرتفع ... مع كل مرة يجتمعان ... فيها في غرفة خاصة ....

– إنه ليس بيتك يا سخيف !

الفصل الثامن

السير .. السير ... الكلام .. الكلام ... أكثر ما نفعله لو خوينا ونخرت أبداننا من التفكير ،تنتزع منهم أشياء لصالح القضبان وما خلفه أعور لا يرى إلا بعين واحدة والأخرى مغطاة كأنها طماطم مهروسة بكف عجوز ... كومات اللحوم المرمية تأكل البصل النيئ ويتشاجرون على علبة كبريت أغلب اعوادها قد حرقتها نتانة أجسادهم ولهيبها ... وثمة سجين يرقص كطفل ممسوس وقد تعرى تماما .. وامتقع لونه ... يصدر أصواتا كأنها زقاح القردة وثمة اخرون تذيب شحومهم صفعات التيار الكهربائي ... ويتجهمون بوجوههم للجنون... وفي احدى الزوايا كان هناك كومة لحم كبيرة جسده محبب بندب حمراء بجوفها قيح وقد عشعش القمل على ثنايا شعر... وبطنه كأنها كيس دقيق ... والمحقق الأكثم الحطيئة يصدر فرقعة من أصابعه بينما تشنف اذنه بتلك الأصوات وهو يرتاح على كنبته .. يطلق نفخة ثم يطلق نفخة ثانية ... يود لو يستنبت شيء في عقولهم والسنتهم...ليشد على رقبته وبصوت واحد يجعلهم طرائق قددا.... يأتيه مرافقه بخطوات سريعة ولسان متلعثم .

– صباح الخير سيدي

– صباح الخير في الليل يا كلب . خذوه وارموه في زنزانة منفردة ..!

كان لو نازعته روحه يرمها بغياهب السجن ... جسد ملء بدوائر السوء يتلذذ لتلك الأصوات التي ترتفع في حضرة الالم بين الحين والحينِ...

وهما بجسدين خاسرين ... لن ينفع معهم كل هذا يرتكنان الزوايا ويشيحان بأنفسهم عن كل الوجود ... وقد تجمعت فيهم كل تلك الأصوات .... لا يفتأ أن يعاود نفس السؤال (من .... أين... متى ... أنا .... كيف...)

يقف مشدوها وتراوده آلاف الصور لا يفهم منها إلا القليل (شقوق الطين ... الجدار... المقبرة ... الست آمال ... المراب ...) ويلفعه سؤال

لطالما راوده (لماذا الإنسان يتعلق هكذا بالمكان) . يفض إليها بسره وهواتف المدينة ترن في وقت واحد (هل المتصل واحد ؟!) يمر بهم اليوم بكافة اناقته (الشروق ... البكور .. الغدوة ... الضحى ... الهاجرة ... الظهيرة ... الرواح ... العصر ... القصر الاصل ... العشى ... الغروب .... الشفق... الغسق... العتمة ... السدفة .... الفحمة ... الزلة .... الزلفة ... البهرة ... السحر ... الفجر ... الصبح ... الصباح ...)

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

القضبان مع جسديهما يشكلا وحدة انتظار صدئة ... وأفواه المقربين لحظتذاك تفصح عن جوف السجن الذي لم يزره الماء من أيام وتخلى عنه طيب الطعام ... ونمنمات رملية بيديه عبر ممرات وعرة تثير غثيانه... يأكلون قطع من علب الصفيح المغطوس بقي الأخرين ... تدور برأسه أصوات صهيل حصانين يجرون عربة .... يغفيان على فراش صلد ...تتجرع (سماح) الام صادره من داخل بطنها ... وهي منفردة تماما عنه .. منذ أيام يشتركان بالألم ...(تهمتكم ليست شنيعة وستخرجون قريبا) هكذا قالها ببرودة اعصاب

ذلك الضابط الذي بدا عليه انه متعاطف مع سماح ... الشرر يتطاير وبقع دماء تتقافز واثواب حمراء وأخرى بيضاء وافواج من اللحوم البشرية تقاد للمجهول والحتف الحتمي ...بدت بطنها تأخذ الشكل الدائري وثمة كومة لحم قادمة ليكونا ثلاث أجساد في روح واحدة ...تمر الساعات ... عشرات الساعات .... تهدر الأنفاس ... والزمن يتقدم ... والدموع تذرف ...والضحكات لن تمسك ...

ليرمون بجسديهما خارجا ... بعد أن يأسوا من عدم حاجتهم لهم وعدم استنطاقهم بشيء نافع ...

-٢-

يبحث عن يده في العتمة ومعاً يسارعان الخطى بجسدين ذابلين .... يرفع بحذائه الرث شراشف قذرة تعترض طريقه ... طريقة مشيهم بدت غريبة لعيون الأخرين وهذا أشعرهم بالامتعاض هنيهة ... عجلات السيارات تبتسم لهما تعاطفا .... مخدع رأسه يطرح ارضا .. وثمة نواح صادر منه ... تحوك وتسير فوق الأرض هياكل وقلاع ثملة ..ولكنها تتناءى عن حمل جسد منهك ..!ليحدث فرقعة في تهاويه تبل عروقهم .... أومأت له أن ضفائرها تكاد تتقطع وكأن أصابها الهومسك .... وقد تملكته رعشة فجأة ... ليمتد بصرها على المدى وانتابتها ظنون شتى ... وعبر ممر ضيق سارعت لنقله إلى المستشفى العام بعربة خشبية يدفعا صبي داكن السمار .. اشترط ام تمنحه ربطة رأسها الجميلة مقابل التوصيلة بعد أن أقنعته إنها لا تملك النقود !!!!وفي المقابل يمنحها خرقة قماش كان يمسح بها القاذورات من العجلة لتقضي بها يومها بدلاً من ربطة الرأس التي اعتقد انه سيجنى من ورائها كنزا لا يفنى ... وقد عجبه منظرها فاراد ان يقدمه هدية لامراة ما يعرفها !!! تباً لأولئك الصبية الذين يبدؤون مراهقتهم مبكراً... وعبر الأزقة ممرات ضيقة وتلال من الرمل ... واعوجاج الأرض... ومياه آسنة ...

ووجوه المارة غريبة تحدق بكومة اللحم المرمية بفجاجة ....!على جدار المستشفى رحبت بهم عبارة عاهرة (لسنا الوحيدون ولكننا الأفضل)!

واحاديث الطب العدلي تجانبها ....

– مت أي يوم شئت ... فلا حاجة للآخرين بك ... أنت مشلول ومقعد .. وعجوز خرف..

إذن مت متى تشاء ! ! ! !

وآخر دس في اللحد سهواً .... وعنكبوت بحجم الكف ينسج على المراة ليطارده بندول الساعة بعيونه الزائغة ... أنواع الطقس تكبل افواه المرضى .... اسرة من حديد ... أوراق تواليت ... اغراض مترامية وأخرى متراصة مسيطرة على المكان... ستائر رثة ... والغبش يقيد الراقدين ... خيوط تغرز بالأجساد عنوة ... وثمة رجل مسن قبره يغفر الفاه .... يرتشف البيرة بعيداً... عن الانظار ... وآخر يسرق باقة ورد من حديقة المستشفى ليقدمها إلى مريضه الذي يحتظر في العناية المركزة .... وثمة زعيق لمرضة بوجه قبيح محبب غير مدراكة إن النساء القبيحات يبقن مصاحبات لأمهاتهن إلى الممات حتى يخرجن كجنائز من بيوتهن .. وثمة طبيب قد بانت الغرابة على وجهه وهو يرتشف قدح من حبر قلمه ... وفوقه مروحة سقفية تنوء بنفسها .. وقد ترك غاز الكيماء يتسرب إلى غرفته ... عاين الطبيب الاخصائي نبضه وأمرهم بنقله لغرض إجراء كافة الفحوصات ... أصوات نبض متحرك صادر من غرفة التبرع بالدم .... وغرفة العمليات .. رغب في التقيؤ والبول في آن واحد....

شاحنات تطلق صفارتها في الخارج ... وهي تحمل تشكيلة كاملة من الأعضاء المستوردة ..!(أذان ... عين ... أنف ... كلية ... قلب ...) وأخرى خاصة لنقل العقول! ! ! في بلد أكثر ما يصدره العقول ! ! ! وقد افردوها لأهمية هذا الجزء ... أصوات الأنات تتصاعد كالمونولوجات داخل راسيهما ... وبعد اكمال الفحص ...زرق الممرض له حقنة في مؤخرته دون أن يعرف عنها شيئا ليصدر لهم امراً بالخروج الفوري .... بعد أن هدأ أنين كومة اللحم ... حاولا إقناعه بضرورة البقاء والرقود على الأقل هذه الليلة وعلى مقعد ذوي الاحتياجات الخاصة ... ليسرقا جسديهما في ليلة هادئة في مؤخرة الحديقة

حيث الكل قد رقد وجعه ... واستسلم للموت الموقت .... وبقى حراس مغفلون تطفأ عيونهم لحظة وتعمل لحظتين... غائبة عن كومة لحم يلتحفون السماء .... وينامون على أيد بعض يتبادلان بدون تفكير لأي أحد منهم تقبيل الآخر ... ربما ماتت كل غرائزهم ولم يفكروا إلا بإراحة جسديهما العاطلين تماماً ... من كل الحواس .... ليغفيه سؤال هاجس ...(من المومس ... ست آمال وصديقاتها ... ام المجتمع ؟!)

-٣-

المؤذن أسبغ وضوءه وفتح اللاقط الخاص بجهار تكبير الصوت ليرفع بصوت مرتفع نداء السماء (اللّه أكبر.... اللّه أكبر) فز شيء داخل جسدهما ... وصراخ صادر من صالة الولادة ورجال غلاظ مدججون بأسلحة ثقيلة وخفيفة... وكان معركة عالمية ثالثة تقوم داخل المستشفى ....اقتربا بجسديهما من الضجيج قرب صالة الولادة ... وثمة طفلة ولدت وهي غير عذراء اتهموها انها كانت تنام مع الدكتور الخمسيني !!!!!والطفلة تصرخ تود من يقمطها من عريها ... توها غادرت بطن امها ... لهذا العالم القبيح الزائف !!!

تتقشر وجوههم وطرح ذهنيهما ارضا ... وبدت سماح تخطئ في المشي ... وقد تداعت امامها ملامح ملاك صغير تناوشته انياب حادة وهي تتحامل بوجه زحزح المكان يترقب امتداد المدارات ... من احاطوا بالملاك امراة عجوز تنفث بسيكارتها وقد البست عار الدنيا لوجهها ... ورجل بعمر والده وقد ملئت حركاته بالمثالب ... جمعت لعابها وقذفته وهي تسحب بجسدها ليتناثر من خلفهم ... مضغت صورة صلبة لتركل اطارها المائع من الخلف ...النعيب يملئ جو الخارج.... وجوه مصفرة ... وأخرى مسودة ... وأخرى متلاشية ... ورئتيها ... يتسللها هواء يلفها ليتبضع أعضائها ويدبغ جلده الترحال ... وثمة

طلل يحاوره ويحل مئزرة ليشرخ تأمله المحدب ... استغرب من تفكيره دقائق قبل ان يجر قدماه وقدماها إلى المرآب حيث ترك صاحب الحاجب البيضاوي بلا اذونات مسبقة ... لا فكاك من زعيقه وشزره المتطاير ... فهو يعتبر صوته نذير شؤم رغم أنه لم يلاق العكس ... الشارع يضج بالحركة

أفواه تتحرك ... أجساد تنبض بالحياة ... استخفتهما الأضواء المتفترات ... ولم يرنق صفوهما وثمة خرنق وافعوان يتسابقان على جيفة مرمية ... وفتاة عشرينية تكنس باحة دارها بانهماك وتضوع من الدار رائحة طبخ الرز ظهراً.... وقطيع أغنام يقاد من ساق متصلة بالشارع وتسير وحيدة بترقب ... تستكين لديه الرغبة .. يلوح لعينه ضوء خفوق ... ليمتد بيده إلى كافة جسده يتحسسه بألم يعتصره وثمة كتل لحم بدأت تركل احشاء سماح فتداعى اله وتداخل مع المها ... اطلقت تأفف طويل قبل ان يجثو على ركبتها وثمة صراخ من داخل بطنها ولكنه لا يتجاوز التراق .. الزوايا مقفاة واقدامهم تنجرف بين لحظة وأخرى ... وهما يقطعان الشارع بريبة ...

إعاقات ماكرة تعترضهم وتكون حجر عثر ... يكذب نظره لرفسات كتلة اللحم التي بدء صوتها ينسل لأسماعهم ... والمعاول تترسب داخل رأسها لتعجب وحدة الم ازلية ...وثمة رجل يمرقهم .. يسحب ابنته المجنونة ويسحقها كالبعوضة وقد ظهر باطن كفه الايسر وقد نبت شعرا كثيف فيه ..

– أريدك أن ترتدي البدلة السوداء ... أريدك أن تتخرجي ؟

– حياتي كلها سوداء لا أريد أن أرتدي البدلة السوداء .!

باتا لا يصدقان بدموع الأيتام ولا التماسيح .... فحياتهم أضحت مثل البوظة التي يلعقها الأخرون ببطيء ... تتناسخ خطواتهم .. يمثلان أمامهما بعضاً ويتبادلان العذال ... أنفاسهم الصفراء مجبولة وهي لا زالت تحبو على الإسفلت

... يخرجا من نفسيهما والآخرين والطريق الأمامي يباب ... والأيد مكبلة لا تقوى على التصفيق ... ابتنوا لنفسيهما ترقب حاذق ... يشحذ من أجل الوصول وانطفاء الألم الذي يعتصرهما ...

-٣-

أيقونة السباب لوح بها في الهواء .. وهو يحدجهم بنظرة وقد رمى المظلة من على رأسه وخلع

قفازه وقد غمره الضوء الذي ينث نفسه ...

– صائب ... اين انت لماذا تركت المراب بدون علمي ؟

– كنت....

– اصمت لا تنطق سأخصم ذلك من المال المخصص لك وسيكون عليك اخباري في حال اضطرارك للغياب ولا سأجعل الشوارع تحتضنك مرة أخرى !

سماح بوجهها المشرق ببريق نافر وذابل في ان واحد لم تسم لحظتذاك الا إلى صرخات قادمة من داخل بطنها ... فلا أحد يطرق بابها ولا أحد يسمع ما بداخلها ... ولو سمع وحس الرجال بطلقات النساء لعزفوا عن الزواج .. يفضى إلى غرفة المراب والظلام كشر عن انيابه وقد تلاصق خده براحة يده ... وهي دفنت وجهها بين كفيها وعلى وسادة متسخة كانت يغالبها النعاس .. وهو بمنديله يمسح الغبار على ذقنه تارة وأخرى يمرره على جبينها ... المخضب بالعرق والاعياء ...الليل في الخارج يشل الحركة ... مضى اسبوع وهما على حالتهما .... الليل يعزف في فنارات النهار ... والنهار يمنح الليل سكون الأجساد .. ويتبادلان الانوار ...وصاحب الحاجب البيضاوي وثب يدفع المال لصائبا .. وهو يتابع بنظراته حاجبيه وقد بدأت تنفذ منه رجراجة ليكون ضمير غائب مستتر تقديره رحل..(هو) رحل يرحل بل (ارحل) هكذا أمراً أطلقها بوجهه .. قبل أن يوضب ألمه وجسده

وسماح وما في أحشائها ... ليرفع حضوره بانكسار ... فصاحب الحاجب البيضاوي ... سام ركود جسدي هامدان بلا حراك ... وفور علمه بقدوم كتله ثالثة ... اتخذ القرار الحاسم !وقد بدء حاذق بالأمر وهو يمرر جسديهما للخارج وازيز الطائرات ووقع اقدام وصوت يأتي من الداخل وصفير يأتي من الخلف قارب يلوح بتوديعاته ... تختلط الأصوات وتتحاشى المارة ... وهما يمرا بأشجار الزيزفون واللبلاب .. والجلسان ... يتناثر على الجوسق وهم يحذوهم بارقة .. امل .. الأصوات لازالت تئز في الشارع ... وحقيبتها يسكنها غائب يحث خطاهم ... بعضلات مفتولة .... وقد تناسى وهي تنوء بجسدها ... مائلة مع الريح ... أينما تميل ... وقد تركت كفاها في التنور لتعجن مع الخبز ...

قادتهم الاقدام إلى فندق قديم بجنبه دار للعجزة ... ودار للمجانين فيه غرف مرتبة ... حيث درجات الجنون مختلفة .... فهناك من يملك ربع عقل ... وهناك لأصحاب النصف ... وكانت هناك غرفة للمجانين المثقفين .. وأخرى للسياسيين الذين يتناولون الوضع السياسي في البلاد ... يشرحونه لبقية المجانين كونهم تحملوا عبء التصدي للعملية السياسية الجنونية .... قابلهم صاحب الفندق بأنفه المدبب وقد ظهر جنبه ابوه الاكبر والاصغر ... والنزلاء قد بان على معيشتهم الضنك ...وكانت مقدمة إصبع قدمه الكبير كأنها فاكهة الخوخ ... المراحيض مغمورة بالبول والغائط ... والسقوف بالية محفرة وكانه وادي غير ذي زرع ... جال في ذهن صائب ان يسال صاحب الأنف المدبب فتحركت شفاهه ...

– لماذا الفندق غير نظيف هكذا ..... إنّ تنظيفه لا يكلف الكثير ؟!

ليرده بزجر :

– هل تدعي العلم باختصاصي ؟

– أنا لا أدعي حتى البشرية ! ! ! !

قطع عليه الخيط .. وقد دله على الغرفة المخصصة .. كان نزلاء الفندق ... متسولين .... بائعي الاسواق ... وبعض الذي لا يعرف قرارهم من مجهولي الهويات وفاقديها ! ...وقبل ان يصعدا مرق من امامهم تلميذ يحمل كتبه وقد ناوله صاحب الانف المدبب زمزمية اشبه بزمزمية الحرب بكثير... ربما لاعتقاده ان العلم والحرب صنوان لا يفترقان .... وقد أماطت اللثام عن بعض ألمه وهو يخط بقية خطواته بقدميه نحو الغرفة .

-٤-

المدينة غافية ... والليل يوغل في النصف الاخير من أحيائها ... وثمة هسيس حركة صادر من داخل بطنها ... يطلق لفظة ببحة مكسورة ...

– أما تزالين ساهرة ... سيغادرنا الليل بعد لحظات !

أجابته وهي ترمي بنظرها إلى نافذة مشرعة :

– أنا جداً مرهقة .. أحس أن روحي ستغادر بدني ...

يمسح وجهها بباطن كفه ... وهو يدرك أن هذه اللحظات توجب حضور الأمهات فيها ...!وقد نفث زفرة طويلة ... صوت يتقطع .... دموع تتراقص متغرغرة .... روحان تبكيان جسد مغادر ... والطفولة الهرمة ... والطقوس المخرزة بوحدة الألم ... أهدابهم توشك أن تغمض أعينهم عنوة ... تمادى الليل مع جسديهما .. قبل ان يرفع حضوره ... من المدن كافة ... وقد اعارهم قسطا صغير من الراحة ... أنفسهم ملؤها روائح عرفوها من ضجيج الخارج ... بجسدين متثاقلين مرميين على سرير خائرة قواه .. بان عليهم بأنهم زارا مثواهم الأخير ... مستراحين على سرير للأزل ...زلزلته صرخة احتظار أسقطتها ... مغشية .. حملها مذعوراً إلى الشارع ... وهو يصرخ كالمجنون :

– تاكسي .. تاكسي .. تاكسي ... أرجوك ... أرجوك ...

وصاحب الأنف المدبب كأنما لم يحصل شيء امامه .. سارع أحد جوقة المتسولين هارعاً ليستوقف سيارة مارة .. قاطعها بجسده وأمرها بنقل (سماح) إلى مستشفى المدينة ... حيث هناك تطلق روائح الأدوية ونفاث السكائر يختلط بها ليكونا تكوينة من عطر يثير الأطباء ...صراخ .. دواء ... لقد مات .... غادر ... اذهبوا به إلى التشريح .... إنه بنت ... إنه ولد ... احملوه إلى النعش .... إلى الانعاش .... أصوات بلحظة بدت خرساء له غير مكترث الا بحالة (سماح) وعلى كرسي ذو الاحتياجات الخاصة وصلت إلى صالة كتب عليها (صالة الولادة)

عقارب الساعة تطرق بصوتها كمعول على رأسه ...(تك ... تك .. تك)

ساعة تودع أخرى وتغادر بلا رجعة إلى عوالم أخرى .. وطابور ينتظر ولادة او موت ... والأصوات تحدث ضجة ... صراخ ... دواء .. لقد مات ... غادر ... اذهبوا به إلى التشريح ...انه بنت ... انه ولد ... احملوه إلى الانعاش ... القوا به في العناية المركزة ... قد يغادرنا باي لحظة ...وثمة كومة بشرية بوشاح أخضر فتحت الباب لتعلمه بتعسر الولادة ... وضرورة اجراء عملية قيصرية ... وإن سماح تحتاج إلى دماء ... اضطرب حاله كثيراً .. وهو الذي لا يملك في هذه الحياة الا جسده البالي ورأسه المملوء بكل شيء ...(ومن يقول للآن عروقه تحمل الدماء ؟) عيناه تتجول داخل الأروقة ... وقدما سحبا جسده إلى غرفة التبرع بالدم ... بدت قطرات الدم تغادر بضجر .. من جسده وقد امتدت يده كأنها جسر خشبي في منطقة قروية ... وفي كل قطرة غصة حرقة ... تحكي ألف قصة ... بدأ وجهه يعلم الغرفة التي تبتلعه على نقص شديد في دمه ... انهى ما طلبوه منه بتقيؤ طويل ... قبل ان يعود للاطمئنان على سماح .. بعد ساعة بدء كل شيء هادئ ... داخل أروقة الغرفة صمت ... صمت رهيب ... مفزع... اضجره الصمت ... اضجرته النافذة الرمادية ... اطلقت الغرفة صرخة ومعها برزت ضحكة المرضة وهي تلوح

برأسها من الباب وقد التمعت اسنانها الصفراء... لتطلق بشارة خروج كتلة لحم ثالثة .. تشاركهم الرحلة ... على امتداد الزمن المعاش ...في إحدى غرف ردهات المستشفى كان يجلس ثلاثة مع قنينة ماء صالح للشرب حسب ما كتب عليه .... وملهاة مطروحة أرضاً مغمسة بهم طويل وشقاء تليد ... هي طفلة كفلقة القمر وقد نالها الفطام في أول ضحكة اطلقتها بلحظة ولادة .... وقد حظي صائب وسماح بفم يحتاج الطعام .

– إذن هي لا تحتاج إلى طعام ... تحتاج إلى تربية ... فأنا رأيي التربية افضل من المدارس.

– المدرسة ... بهذا العمر.

شمرا نفسيهما بضحكة كاذبة يحاول أحدهما إقناع الآخر فيها .... وقد احتاروا بتسميتها (جفاء ..... سراب ... سجال...) فربح الثاني بطور لحظات ربما لأن خير الأمور أوسطها كما يعتقدون جيئت النتيجة هكذا ...

وفي الخارج خطوات طقطقة حذاء تقترب لتطرق الباب وبدون سابق إنذار تربت على كتفه كف ناعمة ...

– هل أنت صائب زوج سماح ؟

– نعم هو أنا ... لماذا ؟

– هل لك أن تصاحبني لغرفتي الخاصة ؟

– على الرحب .

تناسخت قدماهما .. خطوة ... خطوتان ... ثلاث ... أربع ... وتداهمها الغرفة بتنظيمها وقد كتب على يافطة صغيرة ... على طاولة المكتب ...(د. مراد حسن) بعد تحديقه لبضع ثوانٍ تحركت شفتا الدكتور:

– هل أنت من تبرع بالدم اليوم إلى (سماح) ؟

– نعم هو أنا ... هل حدث خطب ما ؟

طأطأ رأسه لحظات ورفع بصره ليرمي بنظرة إلى وجه صائب ...

– لقد تبين أن لديك سرطان في الدم !!! تفرد بنفسه لحظتذاك ... عذل الجسد ... وشاخت برأسه صور مارة ...(الست آمال ... المقبرة ... الشارع .... المصحة ... المرآب ... سماح .... وسراب) وكان الدنيا لم تستطع حمل جسده الذي بدا منهاراً كلياً لحظة سماع الخبر... لم ينبت بكلمة ... لملم قدميه المتعثرة وقادها إلى خارج المستشفى ... بعد أن علم أن الذي تبرع بالدم الفعلي إلى سماح هو ذلك المتسول الذي ساكنه الفندق وأن دمه عزل خشية من شكوك راودت الفحوصات .... في الخارج هدوء ... لا ضجيج يسمع لديه ... الباعة أصابهم الخرس ... هورنات الشاحنات تعطلت ... المتسولون غادروا تقاطعاتهم ... كان جسده يجهد للخروج من عنق الزجاجة بمنظر يثير الذعر... يقطع المدينة عابراً.... بوجه غافل عما حوله لا شيء يلفه إلا الصمت ... بدت السماء غائمة ... والجو كئيب ..ثمة ريح صفراء ... وقرب محطة مرور القطار ... كان جسده شاخصاً بكامل أجزائه الخارجية .... حدق بعيون ليبصر أجزاء ما حوله شوهاء .... بدت عيناه لا تلقطا كل صور الموجودات ... القطار مر لا ينفع معه ندم .... تقلبت برأسه الصور سريعاً .... الست آمال ... سماح ... سراب .... وأسلم .... لما تراوده من أفكار ...

وثمة زوجي حذاء وسط إسفلت الشارع المحاذي مرميين فارغين ..جف الزيت ... التهمته عربات القطار المارة بجنون .... ولم تبق سوى كومات لحم متناثرة على سكة القطار وبجانبها دم مسفوح ... بجانب السكة تماماً ... كانت تغطيه أكياس القمامة وعناوين الصحف .... ما أصعب أن يموت الإنسان الغريب بلا دار ولا قبر يؤويه .. ولا أهل يندبوه ... ما أصعب أن يموت الإنسان غريباً ... بلا احتضار ...

كفن بنظرات المارة ورخام القطار ... واقتبر بأديم الأرض طافحاً ... مقاداً... كان عزرائيل يلبي النداء .... وساعات مرت وأخرى أكلت نفسها ... في الانتظار ...!

والقلق اختلط مع دماء سماح وتسربها خوف فضيع ... وبعد ثلاثة أيام أودعت الطفلة (سراب) لدى صديقتها وجدتها العجوز الفضولية ... لتهيم بالطرقات بحثاً عنه ... عن لحظة مرت بسرعة ... تسحق الطرقات بقدم أشبعها الزمن سواداً شديد الحلكة .. لتستشف من قساوته... وتفرغ أدران غيظها ... ولتدوس بأقدامها على طعام غراب أسحم ... لصقت بلزوجة قصاصة ملطخة بدم بارد:

(الست سماح مع تقديرنا ....

نحترم اللحظة التي بدأتِ العمل فيها معنا ويؤسفنا أننا صرح علمي ومعرفي وتربوي وليست شقة مفروشة أو منتجعاً للأزواج المشردين ... لذا قرر مجلس ادارة المعهد طردك فوراً وبالإجماع..... في العاشرة صباحاً ...)

أطلقت صرخة صامتة .... هزت كيان جسدها ... وابتلعت صيحة مدوية خارجة من أحشائها ... وهي تغطي بكفيها وجهها وتجهش بالبكاء بلا دموع ... فقد خزنت صرخة لقادمٍ أشد اضمحلالاً .... فقد تركت (سراب) بلا ارتضاع ... فقد جف كل شيء .....دمعها ... صدرها .... فمها ... أقدامها تتسارع وتضرب إحداهما بالأخرى وهي حافية تنتعل الأشواك ... في طريق ترابي ... لتطلق عذالاً طويلاً مع الشاطئ القريب ...ذلك الذي أخفى محتضناً كل فضائح المدينة ... ولطالما رسمته في لوحاتها بهياً .... بزرقة كأنها ...زرقة السماء ... شخصت أمامها ... وقد بانا كأنهما مراهقان في أهبة الاستعداد للشجار .. دموعها بدأت تنقطع عن خديها .. وكأن خديها أرض جفت وقحلت ... تراخى جسدها ... واقتربت قدماها خطوات وئيدة ... خائفة .... وأسلمت لفكرة راودتها فجأة بعد منظر الأشلاء المقطعة المتروكة .... وقبل أن تختم استذكرت صديقاتها أيام الدراسة

وبعض من ذاكرتها المعطوبة.....ابتلعها النهر خلسة ودون نظر احد دوى يقطع جسدها وعروقها بحرقة ... وجفلت عيناها غاطسة ... تكفنها الأسماك .... فاضت الروح وفارق الجسد ..(تك ... تك ..تلك ... تـ ... كـ ... تك... تـ... كـ...) ساعة المدينة أزف عمرها ... وجهزت متاعها تحسباً لمغادرة طوعية .... وشاخ بصرها ... لا تدرك كنه أميالها الصدئة .....ذاقت نفسها ماء النهر ... وبقت الصور تقلب نفسها (المراب ... المقبرة ... الاقسام الداخلية للبنات .... بيت الست آمال ... المصحة ... الفندق ... سكن الشارع .... وسراب) وعلى حبل ضعيف بقي قميص رجالي يشد آخر نسائي والهواء يطايرهم وهما عربتان زارا الجحيم مبكراً ... خرجا وعادا من شقوق الطين ... وانكسار الجدران ..عاشا في الجحيم وارتحلا الى الجحيم!

* * * * * * * * *   * * * * * * * *   * * * * * * * * * * * *

صديقة سماح وجدتها العجوز لم يحتملا (سراب) سوى خمس أعوام وبعدها زجوا بها ورموها في ملجأ للأيتام ... بدأت تكبر هناك ... نعومة أظفارها تنمو وتنمو ... وحينما اشتد عودها ... وقوي .. استقلت قطاراً بمبلغ اقترضته من بائع صحف جوال ... لتغادر المدينة بخبر انقطع عنها بالنسبة لصديقة سماح وجدتها العجوز ومن عرفها في دور الأيتام ... الأضواء تبدأ بالوداع ... المدينة بدت تتلاشى وتضيع عن عينيها ... وقد جانبها المقعد رجل ببذلة أنيقة ... في المدينة الأخرى التي قصدت ... قادها صبي لبيت تسكنه مؤقتاً ... وبعد أشهر وأشهر ... تصدت لطرقات الباب لتفتحه سراب وقد طفت على جسدها بوادر البلوغ والنضج .... كانت ملابسها تظهر مفاتنها وأجزاءً من جسمها الطفولي ... وقد وضعت أبهى الماكياج الصارخ ... لتضيء شفتيها باحمرار قاتم ...

فتاة بنهدين صغيرين تستقبل الطارق .. كان زبونها الأول في بيت الست آمال ...

(انتهت)

السيرة الذاتية للمؤلف :

الاسم الاعلامي والادبي : حيدر الاسدي
البريد الالكتروني hedar_alasde87@yahoo.com
هاتف : ٠٧٧١٦٤٧٥٠٢٣

كاتب واعلامي
الشهادة : ماجستير أدب ونقد
- تولد ١/ ١٠ / ١٩٨٧ في محافظة البصرة
- عضو نقابة الصحفيين العراقيين - فرع البصرة.
-عضو نقابة الفنانين-فرع البصرة.
-عضو نقابة الاكاديميين العراقيين.
- مدير مكتب مؤسسة النور في البصرة/مؤسسة النور للثقافة والاعلام في السويد
- يعمل محرر الصفحة الثقافية في صحيفة الأضواء المستقلة
- عمل محرر في صحيفة النوارس
- عمل محرر في صحيفة القلم
-سكرتير تحرير جريدة الجمان الصادرة عن قسم الاعلام والعلاقات العامة بجامعة البصرة للنفط والغاز
- يعمل مدير قسم الاعلام والعلاقات العامة في جامعة البصرة للنفط والغاز
-يعمل محاضر في قسم التربية الفنية في كلية الفنون الجميلة بجامعة البصرة.
-عمل في اعلام كلية الهندسة(جامعة البصرة)
-عمل مسؤول اعلام نقابة المهندسين فرع البصرة.
-عمل في اعلام نقابة الاكاديميين العراقيين فرع البصرة.
- عضو بيت الصحافة في العراق - فرع البصرة
-مدير مكتب قناة الجامعية الفضائية في جامعة البصرة للنفط والغاز.
- الأول على الدورة الصحفية (١٥) التي أقامها بيت الصحافة بدرجة امتياز وحصل على شهادة المشاركة عام ٢٠٠٧.
- نشر العديد من المقالات والمواد الصحفية والأدبية في أكثر من (٢٠) صحيفة تصدر بالعراق وأخرى خارج١١١ه .
- حصل على تكريم وشهادة تقديرية من قبل مؤسسة (برنامج استقرار المجتمع) عن فوز موضوعه الفائز بالمسابقة الثقافية التي إقامتها وطبعت المقالات على شكل كتاب (ثقافة اللا عنف) .
- حائز على جائزة وشهادة تقديرية عن أفضل موضوع صحفي منحته له جامعة البصرة في المسابقة التي أقامها قسم الإعلام في مهرجان ذكرى تأسيسها .
- حائز على تكريم وشهادة تقديرية من قبل (جمعية معا لحماية الإنسان والبيئة) في بغداد عن مقاله الفائز وطبعت المقالات على شكل كتيب يحمل عنوان (الشباب والتحول الديمقراطي هموم وتطلعات)

- حاصل على قلادة عام ٢٠٠٩ وشهادة تقديرية عن موضوعه الصحفي الفائز في المسابقة التي أقامها بيت الصحافة في ذكرى تأسيسه السنوي.
- حاصل على جائزة المركز الثاني بمجال المقال في مسابقة النور للإبداع (دورة المفكر عبد الإله الصائغ) ٢٠٠٩
- اختير من قبل بيت الصحافة من أفضل ثلاث صحفيين مبدعين لعام ٢٠٠٩

- حاصل على جائزة المركز الثاني في مسابقة قناة الكوثر الفضائية (رحمة للعالمين) من بين ثلاث فائزين وكان النص المشارك قصة قصيرة جدا عن النبي(صلى الله عليه واله وسلم).
- من ضمن الفائزين والمكرمين عن مسابقة القصة القصيرة (العراق بين زمنين) والتي اقامتها شبكة انباء العراق.
- حاصل على جائزة المركز الثاني في مسابقة القصة القصيرة التي نظمتها جمعية الفينيق الأدبي بصفاقس في تونس.
-حاصل على جائزة المركز الثالث للرواية في مصر عن روايته (ألكومبارس) والمسابقة منظمة من قبل مجلة همسة المصرية.
- حاصل على تكريم وزارة الثقافة العراقية لعام ٢٠١٢ كأحد المبدعين الحاصلين على جائزة دولية.

صدر له :

-الاعلام الاقتصادي ودوره في تنشيط اقتصاديات البلدان.
-أريج : وهي قصة شبابية هادفة
-بكائيات المطر : مجموعة قصص قصيرة جداً
-الكومبارس : رواية قصيرة –الرواية الفائزة في مصر
-كتاب نقدي (دراسات في نقد القصة والرواية والمسرح والشعر).
-قراءة مغايرة في السيرة العطرة: قراءة مختارة عن صورة النبي في الخطاب الفلسفي- الشعري- الفني.
-تداخل الاجناس الادبية واثرها الجمالي في النص المسرحي العربي.

كتب بالاشتراك:
-لدى الاديب عدة كتب بالاشتراك مع ادباء ونقاد اخرين.